
رواية
محمد إبراهيم
سفر
التيه

سفر التيه
رواية

سفر التيه

رواية

تأليف :
محمد إبراهيم
تصميم الغلاف:
أحمد مراد
تحرير أدبي:
سندس الحسيني
مراجعة لغوية:
محمد حمدي

رقم الإيداع: 2016/22455
الترقيم الدولي: 978-977-820-006-5

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678 -0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

سفر التيه

محمد إبراهيم

رواية

المحتويات

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةَ عَلَيْهِمْ أربعينَ سَنَةَ يَتِيهُونَ فِي الأرض)

26-المائدة

إهداء

إلى أرض تيهي، ومنجاي، وقبلتي، ومعادي.
إلى الكف الذي يربت على القلب.

شكرا،

لميلان كونديرا، فرانز كافكا، إميلي نوثومب، ولدينا نبيل أيضًا!

عودة

عندما فتح يحيى عينيه للمرة الأولى، كان ما رآه مختلفا بالكلية عما توقع، بل لقد كان مختلفا كذلك عما عاش حياته ليعتقد.

تداخل الأبيض والأسود في سنيّ عمره بتركيزات عدة، حد أن تماهى ما بينهما من فروق.

اليوم تغيب التفصيلات الدقيقة، أم تراها تزداد وضوحًا؟ ليرى الكون أبيض مثلما خلقه الله قديما.

هذا ما مميزته عيناه للوهلة الأولى، غير أنه سرعان ما أدرك أنه لا يبصر أصلا.

على مرمى البصر، يمتد الأبيض، يغلف الكون، يطغى عليه هو ذاته، في حين كان إدراكه قد بدأ بالتشكل.

تتابع الحياة عبثها.

بدأ في إدراك قواعدها -أو غياب قواعدها- فك طلاسمها، غير أنها تواصل بلا هوادة.

عند ميلاده الأول، تفتحت عيناه على أبيض المشفى، لا يذكر هذا الآن بدقة، غير أن -حتما- هذا ما حدث.

تراه ينتظر الآن أن تنغلقا على أبيض الكفن؟!

بين الأبيضين، تمتد رقعة شطرنج سرمدية، بمربعات شتى تتماهى فيها درجات الرمادي.

من قبل، بكى بروح طفل لم يدرك بعد، غير أنه أحس.

أم تراه امتلك غاية الإدراك حد البكاء؟

تحكم الحياة قبضتها، ومن ثم تتصل بالحكمة، لو قدر للبشر فدونوا اكتشافاتهم حال اشتداد القبضة لسجلوا سفرا.

تتدافع الأفكار في عقله، يغوص في أبيضه ولا يبتغي عودة.

افتتاحية

تذرف السماء الدمع مدرارا، ومن ثم تتشكل عبراتها كحبات فضة خالصة، تجلد بسياط نافذات، بينما تموج الأرض بالألم، ترزح تحت وطأة الوجع.

تغتسل الأرض من لوثة الآثام.

تنفض الخطايا عن نفوس مذنبات.

يخرج الأطفال تباعا لا يبالون.

يتخففون من ملابسهم ما استطاعوا، ومن ثم يركضون نحو شمس غابت بين السحاب.

يتلمسون طريقهم إليها، تتقشر عن جلودهم الرقيقة أغلال الحضارة، يستعيدون معرفة الرجل الأول وفطرته.

يتلمسون كرات الثلج.

يتحسسون برودتها، ويتلمسون دفئا إنسانيا حول نار الكهف.

أسكرهم البرد، والليل، والسهر.

وكلها خمر مذهبات عقل!

عطايا السماء الكريمة، تذيب أحزان البشر، أوجاع البشر.

وتبشر بشمس صافية، ستشرق حتما، وتلوح في الأفق!

تأمل حازم الجسد المسجى باستسلام أمامه على فراش المشفى. وجه وسيم غلفه الألم وإن لم ينقض على براءته البادية.

خلع نظارته الطبية، فرك عينيه المثقلتين بإرهاق الساعات الفائتة، ومن ثم التفت إلى الممرضة الحسناء الواقفة إلى جواره قائلاً:

- تابعي علاماته الحيوية باستمرار وأخبريني إن طرأ أي طارئ ما.

«قالها حازم بينما ينطق كيانه: سينجو!»

صارت نجاة الفتى أمرا حتميا يتعلق بذات حازم!

ألقى بنظرة أخيرة على الجسد المستسلم، ثم تحرك بخطوات واثقة.

عندما عبر باب الغرفة كان وجه هذا الضابط القلق هو آخر ما تمنى رؤيته. تجاهل لهفته التي لا تخطئها العين، ثم عبر الردهة الموصلة إلى غرفته بخطوات واثقة.

عبر المسافة البالغة خمسة عشر مترا. قطعها حازم في ثوان تابعته خلالها نظرات خالد بغضب. ذلك الأخير الذي نفث غضبه المكتوم في نفس حار خلال شفتيه، ثم لاحقه محافظا على مسافة مناسبة، ومحاولا قدر السعة أن يرسم على وجهه ابتسامة متسامحة وهو يجتاز باب الغرفة الذي تركه حازم مواربا.

بحركة عفوية انتزع سيجارته، وفي ثوان أشعلها قبل أن يقتحم أذنيه صوت الطبيب الصارم:

-ممنوع!

تأمله بغباء قبل أن يسارع إلى إطفاء سيجارته في مطفأة على المكتب، محاولا تجاهل امتلائها بأعقاب السجائر المختلفة!

- سينجو، أليس كذلك؟

خرجت جملته مترددة وجلة كمثل ما اعتمل بصدره، لم يدرك حينها أن قلقا مماثلا يعتمل بذات الطبيب الآن، بل إن كيانه أيضا يردد بخشوع «سينجو».

- كان السؤال ليكون أكثر جدوى لو أتى قبل ساعات من الآن، نأسف

لتعطيل معاليكم على كل حال!
تجاهل خالد ما حملته الجملة من سخرية جلية.
- لقد تحركنا قدر الوسع، كنا نتمنى لو أبلغونا قبل الرحلة.
-نأسف من جديد لتحركهم بلا استئذان! غير أني لا أعتقد أن في هذا مسوغا كافيًا لتركهم للموت.
حذره رئيسه المباشر بحزم:
- يريدونها جنازة ليشبعوها لطما، مواقع التواصل الاجتماعي مقلوبة رأسا على عقب، ولن يدخروا وسعا في تحميلنا المسؤولية كاملة.
لا سماح بأي خطأ من أي نوع، نحتاج لصورة كاملة، معلومات شديدة الحسم تمكننا من صياغة موقف متماسك، لا مشكلات، لا صدام!
اختاروه لأنه أقدرهم على التحكم في أعصابه، والخروج من الكارثة بأقل خسائر قدر الإمكان، والآن، يصر هذا الطبيب المتعجرف على تحويل الأمر إلى صراع.
سيشكل عبئا حقيقيا هذه الليلة.
لو قدر لخالد متابعة مواقع التواصل في هذا الوقت لصعق!
الموجة عاتية، ولا بد من انحناءة مسالمة لبعض الوقت.
- أتصور أنك متفهم، لا نتحمل المسؤولية بذلك القدر الذي تحاول تصويره، أنت تعلم طبيعة المنطقة والإمكانات المتاحة!
-الإمكانات؟ إمكانات بلد باكمله بين أصابعكم تحركونها كيف شئتم!
-نبذل جهدنا قدر الوسع كما أخبرتك! حياتنا فداء لأي مصري...
بتر كلماته إذ لمح ابتسامة سخرية بدأت في التشكل على محيا حازم.
- هل عندك شك في ما أقول؟ هل تتصور أننا ننتظر خبر وفاتهم مثلا؟
-حاشا!
تمالك خالد أعصابه مرته الألف هذه الليلة، تنتظره ألف مثلها إن عد نفسه متفائلا!
- أعتقد أنك تتحمل قدرا من المسؤولية الآن! هل سينجو هذا الفتى؟
أراد إضافة الطابع الرسمي على سؤاله.

- إن أرادت القيادة السياسية ذلك، فتلك مشيئتهم!

«اللعنة! أي شيطان لعين دفعه لتلك المواجهة؟ ثم يأمرونه بالتعقل؟ أي ثقة تلك التي يتحدث بها هذا الطبيب؟».

ود لو لكمه، لو حطم صلفه وكبره، يريد أن يخلص إلى تقرير مفصل، الحالة الطبية للأحياء وأسباب وفاة الموتى!

هل كانت المسارعة للنجدة لتشكل فارقا؟

معلومات دقيقة يطلب، رقم في تقرير وانتهى الأمر.

لكن عيني حازم تتبئانه بأن ليلة طويلة تنتظر.

بدأ الأمر حين سعى طلاب الفرقة النهائية بكلية الصيدلة إلى إدماج دورة تدريبية لباسم مراد، ضمن فعاليات التخرج.

باسم مراد، اسم أشعل «فيسبوك»، يعرفه كل الصيادلة الفاعلون على هذا الموقع.

متخرج في كلية الصيدلة بالجامعة ذاتها التي تحمل شعارًا على هيئة الخازوق، منذ عدة سنوات مضت.

هو ذاته الذي وقف كسيرا أمام عميد قاسٍ يخبره بحياد أن لا تراجع في قرار عدم اختياره كمعيد، رغم تفوقه الباهر مضرب الأمثال، مع انقضاء السنوات، يقرر طلاب ذات الكلية استضافته هنا، وفي ذات المدرج الذي تمنى أن يخطوه محاضرا يوما.

اليوم، رغم أنف كهنة الأقسام العتيقة، الذين اكتفوا بمتابعة الكارثة كما أسموها.

فباسم الذي وقع عليه الاختيار لم يتحصل على أي درجة علمية فيما بعد البكالوريوس!

الموجة عاتية، أحداث يناير القريبة تزكي حماسة الطلاب، وتجعل معارضتهم فعلا متهورا وجنونيا.

التجهيزات محكمة. تناغم مريب بين اتحاد الطلاب والأسر الفاعلة ينبئ بحدث أسطوري.

وبالطبع مع دعم لا محدود لطلاب الفرقة النهائية تحديدا، احتفالا بتخرج وشيك.

واشتعلت الأجواء إذ أعلن المحاضر الشاب، عبر صفحته الشخصية على فيسبوك، عن فخره الشديد بالعودة إلى كليته القديمة محاضرا، وأشار بخبث إلى دعوة مذيلة بتوقيع عميد الكلية شخصيا موجهة له، وإن لم يشر إلى كونها شرطا وحيدا اشترطه للموافقة على الحضور، بل وأشار بمرح إلى أمله أن يلتقط صورة «سيلفي» بصحبة العميد، مع أول أيام الدورة التدريبية.

الغروب محمل بالشجن، يحبه الحالمون والعشاق، يرون فيه أملا بليلة هانئة، وبشرى بغد يعد بالوصال.
بينما يخشاه أولئك الذين يخافون الليل.

أرخى الليل سدله، الصمت غلف المكان، ومن بعيد تعالى صوت حركة دوؤب لقطار ليل سريع، تناغمت حركته مع عقارب ساعة باسم الكلاسيكية، من علامة كاسيو التجارية، هدية جده المحببة.

يجري باسم مقارنة شديدة البدائية بين القطار والحياة.

لا مقام دائما هنا، فقط تعاقب بين المحطات.

يبصر راكبا جديدا يعاين المكان بعينين ملؤهما الحماس.

متململ هناك يبدو أنه قطع أكثر من محطة، حد أن حفظ أغلب الموجودات.

غير أن لو قدر لحياة باسم أن تتشابه مع قطار فحتما لن تكون كقطارات الدرجة الأولى تلك.

لربما كانت أقرب لقطارات الدرجة المميزة التي اعتاد ارتيادها طالبا جامعيا ينتمي إلى إحدى الأسر المتوسطة.

اعتاد السفر آخر الأسبوع ليلتقي أهله، بعد أيام دراسة شاقة قضاها بين المحاضرات والدروس المعملية، والاستذكار في ليالي الشتاء الباردة.

استذكار اندمج فيه بالكلية حد أن ذاب.

استذكار استعبده فاستلذ الاستعباد.

وعلى الرغم من سفره اليوم عبر قطارات الدرجة الأولى، فلا تزال ذكرى القطار المميز (أو الميزو كما كان يسميه) تلح عليه.

هناك حيث يطالعك ألف وجه ووجه، وكل وجه يحكي حكاية، وجوه وقحة تدقق النظر علها تنفذ إلى أعمق تفاصيلك.

وكأنما ما كفاها ما اعتمل في أنفسها من هموم وأوجاع وحكايا.

حكايات شتى يجدها في الميزو، رحلات عمل، وأخرى للدراسة، وربما للعلاج، يجمعها جميعا خط سكة حديد وقطار متأرجح ودعوة صادقة أن تصل بالسلامة.

هذه هي الطبقة التي انتمى إليها واهتم بهمومها في سابق الأيام.

عاد ليتامل العربة من حوله حين هدأت الأصوات، وغط أغلب الركاب في

نوم عميق، في حين انكفأ هو على حاسوبه النقال لينتقل إلى عالمه الافتراضي ملقيا نظرة لاإرادية على مقعده المجاور الفارغ، شاعرا بغبطة إثر فقد رفيق طريق مزعج متطفل في أغلب الأحوال.

في رحلته السابقة كان جار مقعده من ذلك الطراز، ظل يحدق في شاشته كطفل يكتشف الكون مرته الأولى، يراقب سكنات باسم وهمساته، ولا يجد بأسا في مراقبة حواراته عبر غرف المحادثة الخاصة، إلى أن ضج باسم في الأخير، فاضطر إلى مشاركة أصدقائه شطرا من شعوره إزاء نظرات جاره المتطفل الذي يراقب كلماته الآن!

انهمك في عالمه نيلي اللون، حد أن لم يلحظ توقف القطار بإحدى المحطات وتوافد ركاب جدد، فتاة في أواخر العشرينات توقفت عند مقعده بحياء، وهمهمت بما يفيد أن المقعد المجاور له يخصها.

ارتسمت ابتسامة مرحبة على محياه، ومن ثم قام ليسمح لها بالجلوس، في حين تأمل وجهها بادي السمرة المتشرب من طمي النيل. عينان كحيلتان ساحرتان لا يعرف صدقا أعن كحل أم عن طبيعة متأصلة فيهما، يظللهما حاجبان كثيفان نسبيا، تكتمل الصورة بوجنة ممتلئة وأنف استوى على موضعه، وشفتين صبغتا بصبغة قاتمة طبعت على وجهها جمالا وسحرا.

جلس من جديد واستعاد في ذهنه كيف بدا قدها رشيقا مع امتلاء، زيها محتشم سابغ برزت منه كفان ممتلئتان وأصابع بالمثل.

تأخر كثيرا حتى تذكر كيف يكون غض البصر، وكيف أن نظرته الأولى تبعتها ثانية وثالثة ورابعة، دون أن يشعر بتأنيب ضمير، كأنما يتأمل لوحة بديعة.

سره في البدء أنها ليست بالمتطفلة ولم تتابع شاشته المضاءة، وإن ضبط نفسه متلبسا بتمني العكس، غير أنه بعد دقائق كان قد بدأ تطفله الخاص، إذ أشار إلى سماعات أذنها وهو يقول بلهجة متوددة:

- تحبين منير؟

نزعت إحدى السماعتين وأشارت بأن يعيد ما قال، قبل أن تبتسم بخجل:

- آسفة، لم أنتبه إلى أن الصوت عالٍ.

-لا عليكِ، أنا أيضا عاشق لمنير.
كاذب، يعلم ذلك.
لمعت لمحة غابرة من ذكريات شبابه الأول، قبل أن يتذكر استقرار قناعته في الأخير على أن الغناء حرام شرعا!
انتقلت أصابعه تلقائيا نحو مجلد منسي في حاسوبه وهو يشير بفخر:
- أمتلك مجلدًا بأغانيه كاملة كذلك.
بدت على محياها دهشة مشوبة بالفرح، وإن قرأت في عينيه بعض الافتعال، يشعر للمرة الأولى بامتنان حقيقي لمتدرب صيدليته الأخير، الذي رجاه بأن يحتفظ بمجلد لأغاني منير إثر نفاد بطارية حاسوبه، وقد كان.
وعلى الرغم من تحصل الشاب على وديعته في يومه التالي، فإن باسم لسبب ما كان قد احتفظ بنسخة من المجلد.
سألته بعين لامعة إثر نظرة إلى حاسوبه:
- طبيب؟
-صيدلاني، أمتلك صيدليتي الخاصة، وأحاضر في دورات تدريبية للصيادلة. «أضافها بفخر واضح»
-أكاديمي إذن؟ أستاذ جامعي؟ تبدو صغير السن!
-كلا.
دوما ما كان متحفزا تجاه تلك النقطة، يبررها بأن الدراسة الأكاديمية تتطلب مجهودا مضاعفا ومالا يُبذل بلا طائل.
يجيد دوما الدفاع عن فكرة المحاضر الذي ملك خيوط العلم دون دراسة أكاديمية. دائما ما كانت كلماته مقنعة!
فدوراته الطبية لا تحتاج دراسة مكثفة لسنين طوال، قدر ما تستلزم حضورا، وحسن صياغة، والأهم من ذلك كله قدرة على التواصل.
ولقد أجاد ذلك كله بالقدر الملائم لإرضاء مريديه من طلبة الصيدلة، الذين يتابعون خطواته بشغف وحب.
- اسمي باسم مراد، أتشرف بكِ؟
-نهى فؤاد، مهندسة ديكور.

لمَ شعر بهذا الطارق العنيف يطرق روحه ويهز كيانه؟
لمَ شعر بأن الاسم استغرقه؟ انتقل به عبر ردهات منسية في عقله ووعيه واحتل إدراكه!
أولم تكن قد نسيت يا باسم؟
حَتَّام يمزقك الألم وينهشك الأسى؟
يتذكر إصرار والدته على ارتباطه بحفصة، ثقته الكاملة في اختيارها.
اندماجهما معا في تمثيلية عن متحابين من النظرة الأولى، واجتماعهما تحت أعين القدر، كأنما ما رتب أهلهما اللقيا.
كيف سمح باسم لأحد (أي أحد) أن يقود حياته، أن يرتاد صعابها دونه، أو أن يطرق سهولها وأوديتها ثم يصطحبه في الأخير إلى المستقر؟
لقد عاش حياته على غير ما أراد، بل لقد عاش حياة أخرى غير تلك التي قد رغب فيها.
تشعب الحديث بينهما إلى تفاصيل عدة.
تلفت لوهلة ليجدها قد غابت مثلما ظهرت.
لم يتذكر كيف اصطحبها إلى باب القطار حاملا أمتعتها، بل لقد غاب عنه أن يسائلها عن بلدها.
رحلت دون أن يلمح اسم المحطة التي غادرت فيها.
غاب عنه كيف فرغت بطارية حاسوبه، وسماعة الأذن التي اقتسماها، وكيف صدح منير مترنما بالنسيم الذي يهفو إلى شعر محبوبته.
كان ما أدركه باسم في الأخير أن نهى قد رحلت، نهى أخرى، غير تلك التي قد هفا لها قلبه من قبل.

طويل ليل نهى كطول الشجن، تثير نسماته الباردة في النفس المشاعر والكوامن، تستدعي ما واراه قيظ النهار من رغبات حبيسة.

تقلبت نهى في فراشها مثلما تقلبت أفكارها الشاردة أبدا طوال سنين فائتة عديدة.

طال عمرها بطول حزنها، وامتدت رغباتها فما عاد يمنعها إلا بقايا حياء استتر خجلا.

استعرت رغباتها الحبيسة تجلد الظهر، وتسلي الجسد بنيران محمومة.

وجه مستدير غائم تركت عليه أوجاع الليل آثارها الكئيبة.

عينان سوداوان هائمتان في عوالمهما الخاصة، يظللهما حاجبان ارتسما بعناية وحذق.

ويستندان إلى وجنة ممتئلة ذابلة.

قَدٌّ رشيق، غير أن من المبالغة وصفه بالرهف، وجسد متناسق وارته الحجب فما أغنت من طامع وما أغنى شيئا من رغبات الليل والنهار.

نفس حائرة، وجسد منهك، وعقل مكتظ بآلاف الأفكار، وآمال زائفة تلوح في ليل سرمدي بلا انقضاء.

تداعب جسدها الذي بذلت لأجله الغالي من مستحضرات تجميل وأدوات زينة وعطور، وسط قناعة اقترحتها على عقلها فاستقبلتها ذاتها ممتنة بأنها تفعل كل ذلك لأنها تستحق أن تظل جميلة فاتنة.

حقا لم يعد يطلبها الرجال بذلك الإصرار القديم، إلا أن بابها لا يزال يُطرق بخاطب تلو آخر.

ربما كان جلهم طامعا في صيدليتها الصغيرة أو ميراث قليل ورثته عن والدها الراحل، إلا أنها لا تزال مرغوبة.

تلاحقها الأعين المتفحصة لرجال وشبان يدلفون صيدليتها، وقد أغراهم تأخرها عن الزواج، ولربما رأوا فيها منفلتة متحررة.

سرعة استجابتها لطلبات الصداقة عبر فيسبوك، تواصلها الدائم مع معلقين على آرائها العفوية، اهتمامها بالأنشطة الاجتماعية، دعمها لأحد مرشحي

انتخابات الرئاسة في الانتخابات السابقة، بل وعملها بجد لدعم إحدى قوائم انتخابات نقابة الصيادلة الأخيرة.

غير أنها وفي الأخير تود لو جدفت عكس هذا التيار كله، نحو شعور اندس تحت طبقات الروح.

شعور فطري بانها ولدت لتصير أما وزوجة، وإن تظاهرت بالعكس.

هناك في أعماقها تود لو توصلت إلى تكامل ما مع زوج حنون يحتويها ويحميها.

ودت لو جدفت بعيدا عن آرائها وفلسفاتها التي تتعارض مع ما تشعر به الآن.

في فيلم نهى المفضل «فورست جامب» تدعو الطفلة «جيني» الرب بأن تتحول إلى عصفور، لتحلق بعيدا عن هنا.

إضافة إلى توق نهى للحرية، فإن منظور عين الطائر يستهويها، أن تبصر من علٍ.

ماذا لو قدر لها أن تكون عصفورا؟ إذن لأدركت مع التحاقها بالصيدلة كيف سيكون الأمر منذ البدء.

طالبة مثابرة دلفت الكلية بعد مذاكرة مضنية في مرحلتها الثانوية، لتصدم بعشرات المصطلحات الإنجليزية، بل واللاتينية كذلك!

أدركت مع مرور الوقت أن النجاح ما يعنيها، فانكفأت على دروسها تحفظها، وتدارسها عن ظهر قلب.

وإن أجادت مع الامتحانات الورقية، كان تعثرها ملحوظا في ما يخص الامتحانات الشفهية.

بالمثابرة والجد اعتمدت طريقة قاسية لحفظ المصطلحات (نطقا) وبعناية من ملامح تفوقها القديم اجتازت امتحاناتها العملية بسهولة، بل وتمكنت في الأخير من تحقيق درجات ممتازة.

لو كانت عصفورا، لربما ما احتاجت إلى الموازنة بين حياتها الحالية واحتياجها المُلِح إلى رفيق درب، يخفف ألم وحدتها ويهون تلك الجراح التي تصطلي بها روحها.

غير أنها لا تتحمل أن تمضي البقية الباقية من حياتها مع أحد الطارقين بابها على استحياء، فتعمد في أحايين كثيرة إلى الاستمتاع بوقتها منفردة.

يستلزم الأمر أن تترك الصيدلية بعض الوقت لمتدربتها الجديدة ميار، ومن ثم تقضي يومين في قلب العاصمة.

فندق راقٍ يكلفها مبلغا لا بأس به من المال، وجولة على القدمين في أزقة المدينة القديمة، تتوغل وسط الزحام، وترشف قسطها من الحياة ارتشافا.

ومن ثم تعود إلى الفندق لتطالع رواية كلاسيكية مترجمة مما تهوى وتحب.

تلح عليها والدتها بالكف، مع تبطين دعوة ملحة بأن يرزقها الله «ابن الحلال»، دعوة متأخرة الاستجابة دوما، أو معطلة ربما!

غير أن الأم دوما ما تعجز عن استخدام سلطاتها تجاه نهى؛ التي تحررت بالكلية فور وفاة الأب.

ومع تاخر سن زواجها بدا أن الأم قد تجرعت ألم فقدان الزوج مضاعفا.

من قبل دلفت نهى إلى التحرير، كانت أحداث يناير قريبة عهد.

التحرير يضج بالزوار ويخلو من المتظاهرين في مرة نادرة وقتها.

بائعة جائلون يتسمون بالوقاحة، هذا يصر على أن تبتاع علما، وذاك يلح على أن يلطخ وجهها بالأصباغ الرخيصة الملونة بعلم مصر.

آخر قام على حين غرة بإلصاق ملصق بالعلم يحوي إشارة إلى ذكرى أحداث الخامس والعشرين من يناير، ومن ثم طالبها بثمنه!

وغيره يعرض التقاط صورة لها في موضع هنا أو هناك!

ومن ثم فرت من السيرك المنصوب، وعيناها متعلقتان بمبنى المتحف الذي يلوح من بعيد.

تلاحقها مضايقات من فتية هنا أو هناك.

فقد التحرير رونقه وألوانه الزاهية التي اكتسبها عبر ثمانية عشر يوما فاصلة.

غير أن اسمه قد تحول إلى رمز.

تراها تحولت إلى رمز بالمثل؟ رمز تشير إليه الأمهات ومن ثم يتبعن

إشارتهن بالتحذير، تزوجن وإلا صرتن مثل نهى!
فكرت في ذلك رغما عنها لمرة وهي تتجه إلى محطة المترو.
تعلمت وبالطريقة الصعبة كيف تزيح أعباء اجتماعية عن كاهلها.
تحاول قدر الوسع أن تحتفظ، في ركن قصي من روحها، بطاقة الحب تجاه العالم بتفصيلاته المتعددة.
يطرقها الألم، فحبها الوحيد كان لسبب مماثل، ما رأته في روح باسم من أرض عطشى للري بالحنان.
إدراكها أنها قد امتلكت مع سنيّ عمرها ما يروي ظمأه.
ما لمسته في روحه من ثورة مكبوتة تجاه العالم بأسره.
شعرت منذ اللحظة الأولى أن بداخلها ما يجبر كسره الداخلي تجاه الكون، استشفت فرحه الطفولي بها، تكسّر خجله رويدا رويدا إزاء حضورها.
تؤمن نهى بأنهم، أي الرجال، أطفال صغار وإن طال بهم العمر؛ بحاجة ملحة ودائمة إلى قدر من الاحتواء.
أطفال يجيدون التظاهر بالقوة والخطورة أيضًا، غير أنهم وفي النهاية بحاجة إلى حضن ومستقر، حضن يهدهد ويتحمل عن طيب خاطر زلاتهم وهفواتهم بقلب حانٍ محب.
تراها لهذا تملكتَ روحه؟
لم تسع لهذا منذ البدء، غير أن هذا ما حدث، أدركت أيضا أنه يحب نفسه في حضورها، وهذا هو جوهر الحب وفق مفهومها، ولقد أدركت أنها توصلت في الأخير لمصير ذاتها أيضًا، متنفسا لعطائها ومستنفذا شبقا لدفئها البشري.
انتزعها صوت قريب من تأملاتها، تحرش لفظي فج اخترق أذنها، تسمرت.
ترى الشر في عينيه، غير أن إلى جواره استقر الخوف.
استبد بها الغضب، ها قد صارت غرضا لأحد هوام الطريق.
ارتفع صوتها وتعالى سبابها الواهن.
كان ذلك حين بدأ الناس في التجمهر، ولدهشتها قد انهال عليها التوبيخ!

بل إن إحدى الشمطاوات قد تلمظت لتلوم وقاحة بنات هذه الأيام. في الأخير كان الجميع قد تناسى من المذنب وانهالوا على جسدها بألسنة ثقال.
شعرت بالانتهاك! ذاقت علقمه، ومع صوت لائم جديد كانت قد انفجرت كبركان صاخب هادر.
بحركة هستيرية مجنونة (أو عاقلة تمام التعقل) أسقطت المتحرش المذهول أرضا قبيل أن تركله ركلة ثائرة بحذائها الدقيق، وهي تشاهد بغل وجهه المتفجر بالدماء.
أدهشها ما ألم به من ضعف وجبن، تساءلت إن كانوا جميعا بهذا الخور؟
أم أن قوتها المفاجئة قد أورثته ضعفا وخزلانا؟
أصرت على استدعاء الشرطة.
العجيب أن الناس حين أدركوا، أدركوا أن فتاة تضرب رجلا، بلا أدنى حياء من أن يمنحوه صفة الرجولة، وحين فعلوا قاموا بإفلاته.
أبصرت نهى أعين النسوة من حولها، وتمالكت نفسها أن تنهار في البكاء.
خذلان امرأة مثلها قاتل!
لمَ يقبلن الهوان؟ لم ينزوين في ركن قصي ويقبلن التردي بنفس راضية.
كانت قد أسلمت قدميها للريح وفرت، وسؤال يلح عليها، لمَ يصررن على اعتبار أنوثتهن عيبا وعارا؟
تتذكر جارة صيدليتها التي تصر على ملاحقتها بنظرات خبيثة، لا تنجح نهى أبدا في الإمساك بطرفها.
اعتادت تلك الجارة على شراء فوطها الصحية من الصيدلية في حقيبة بلاستيك سوداء، وتصر على ذلك احترازا من حملها «هكذا».
تتذكر يوم دلف ابن الجارة الصغير إلى الصيدلية بورقة خُط عليها، بخط بالغ السوء، اسم ماركة الفوط الصحية، في حين خُط إلى جوارها بخط شديد الوضوح «حقيبة سوداء».
ولما كانت الحقائب السوداء قد نفدت يومها، فقد عمدت نهى إلى لف العبوة في إحدى أوراق الجرائد، ومن ثم إيداعها حقيبة شفافة عادية.
ذكرها الأمر كله بالكفن، فابتسمت ابتسامة بائسة.

وما أن غادر الطفل حتى التفت إلى أعلى البناية حيث الأم المنتظرة هناك فيما يبدو، وبدأ بفك الأكفان «لفافات الجرائد المتشابكة»ولوح أمام الأم المذهولة ببراءة طفولية:

- هل هذا هو النوع نفسه يا أمي؟!

تذكرت نهى، ومن ثم غالبت ضحكتها، قبل أن تدلف إلى أحد المطاعم الأمريكية للوجبات السريعة.

قارنت بين نظرات المتجمهرين اللامبالية حين تعرضت للتحرش، ونظرات التطفل التي طالما لاحقتها وهي بصحبة باسم، قبيل أن تتساءل إن كان بوسعها التحليق كعصفور بعيدا عن هنا؟

الأبيض يغلفه، البرد يحيط به، عيناه تقاومان بغية التحرر، وعقله يعود للذكرى.

«اكتنفهم الليل كئيبا مظلما، أرخى عليهم سدله، وأتوه فرادى، يحوي كل بين جنبيه خوفا دفينا مما تحمله اللحظة المقبلة من حياته، أو لربما تعني انقضاء الحياة!»

الليل مظلم، خانق، يغلف الوجود بحضور كئيب، ماجن هو، يفعل الأفاعيل في نفوس قلقة مرتابة، يستدعي بدأب خوفنا الفطري البهيمي، خوفا يحتل مكانته بتراثنا البشري عبر أجيال وآباد.

خوفا لا بد أنه قد صاحب رجل الكهف في رحلته الأولى لاستكشاف الظلمات.

خوفا يستحضر صورته الأولية البكر، ويتأهب لزلزلة كيان أول ذي أمل.

- سرعان ما تهدأ العاصفة، وسيكون بإمكاننا العودة.

أرادها باسم هادئة مطمئنة، فأتت حائرة تتخبط في طريقها عبر آذان متوجسة من الأساس.

شق صوته المكان، محاولا التغلب على أصوات عاصفة غلفت الوجوه، مستحضرا صورته كقائد لمجموعة، على أقل القليل هو أكبرهم سنا.

كم يتوق لدفء فراش حفصة هذه الليلة!

كم يتوق لاحتساء قهوتها العربية التي يهز عبقها المنعش كيانه، جسدها المتألق في ليلة أرادتها دافئة فكانت مثلما أرادت.

«لم لا نرى الأشياء على حقيقتها إلا حين نبتعد؟!»

لكن باسم كان قد ابتعد كثيرا هذه المرة، ابتعد بما لا يكفل له عودة مريحة، بل ربما بما لا يكفل له عودة من الأساس!

نحيب الفتيات تعالى، بينما يقلب يحيى عينيه في الوجوه من حوله، يتمنى صادقا أن لو كان ابن الهيثم مخطئا حين قال إن العين لا تشع الضياء.

حركة عينيه تدل على الحلم، تتابع الممرضة بشغف، في وجهه حسن لا يليق بالموت. تُفكر.

دوما ما كان يحيى مغويا، حال الصحو وحال المنام، وحال تعلقه بين الموت والحياة أيضًا.

يولع بالأنثى، بالجمال، معاييره الجمالية صارمة، لا يتهاون فيها أبدا، وإن تهاون مرات في ما يخص المعايير العقلية فقط إن كانت الفتاة بارعة الحسن.

يجيد دائما استغلال ما توليه الحياة من زهرتهن بما يطابق مواصفاته، وكأنما كتب له أن يظل ظافرا حتى المنتهى.

أسس لمعاييره وأصَّل وفق امتحاناته واضعا قواعد كقواعد النجاح فيها.

فوجه الفتاة هو مدار الأمر كله.

امتحان نظري يستدعي حدا أدنى من القبول، وإلا حكم عليها بالرسوب دون التفات لباقي التفاصيل.

جسدها هو شطر الامتحان العملي الذي يدعم النجاح ويرسخه تفوقا حال اللقا.

والامتحان الشفهي شر لا بد منه لاختبار العقل، اختبار شكلي يرمم الخلل أو يجبر مواطن الضعف.

يتذكر يوم أنهى يومه الدراسي الطويل، ومن ثم دلف مرهقا إلى أحد المطاعم لتناول غدائه على عجل.

يومها لفت نظره شريكان على الطاولة المجاورة، «خطيبان على الأرجح»

فتى تقليدي الملامح، أسمر، نحيل، من طراز متشكك. لم تكن الفتاة بادية الحسن غير أنها تفوقه جمالا.

نموذج شديد الشيوع من الارتباط التقليدي بين اثنين متفاوتين على مستوى الشكل.

تفاوت يدركه الخطيب وينقر عقله باستمرار، فيتعامل مع مخطوبته دوما

من منطق الظفر!

يستعين بنظرات حذرة تجاه هذا الوسيم الذي أنهكه الجوع فانقض على وجبته يلتهمها، في إنجاز وسرعة، متغافلا عن نظرات مفادها «أعلم أنك تحسدني على فتاتي طول الوقت»

حين بدأ الشعور بالشبع يكتمل لدى يحيى كان قدر قرر ممارسة لعبة نفسية خبيثة قاسية.

نظرة حالمة متأملة صوب الشارع الذي يقع خلف الفتى ستوحي بالكثير.

وكطبيعة الأشياء انتقل الترصد إلى الفتاة فبدأت تتابع يحيى بنظرات أنثوية محنكة.

التفاتات لم تخطئها عينا الخطيب المتربص بيحيى المتابع للشارع بثقة لص فشلت كل التحريات في إثبات جريمته.

تحول وقت الخطيب، الذي كان من المفترض أنه وقت مرح يقضيه بصحبة خطيبة جميلة ظفر بها، إلى جلسة على جمرات من نار.

بينما أدرك يحيى تماما أن حياة الفتى ستكون امتدادا لهذه الجلسة.

لو قُدر لمراقب أمين أن يتابع حياة يحيى، فلربما زعم أمام جمع الأطباء في ذلك المستشفى النائي أن يحيى يحضر لهم مفاجأة ما يغادر فيها فراش المشفى، حال تيقن الجميع من أنه لا نجاة!

الدقائق الأخيرة في أي شيء هي الحاسمة

كذا يؤمن يحيى، يردد، بل يتعجب تعجبا صادقا من طراز شديد الانتشار من مشجعي كرة القدم، ممن يغادرون المكان قبيل دقائق المباراة الأخيرة حال تيقن خسارة فريقهم.

يناصر فريقه «ريال مدريد»طوال المباراة، يتأمل استاد سنتياجو برنابيو (Santiago Bernabéu Stadium) الإسباني الفريد، جمهور المدرجات الراقي، ومن ثم يتساءل بحرقة: هل سقطت الاندلس حقا؟ أم أفلت الإسبان أبناء المحظوظة؟

نماذج انتصار اللحظات الأخيرة شديدة الشيوع. يردد.

فقط المثابرة وبعض الروح القتالية هو ما يستلزمه الأمر.

في ألعاب «البلاي ستيشن»يدرك كل الرفاق أن يحيى هو نجم اللحظات الأخيرة.

هدف شبه محسوم سيحرزه فيها.

اللدغة القاتلة التي يمنحها لخصومه.

«الهدية»كما يسميها بتشفِ. ولقد تلقاها الكل وبلا استثناء.

في ما يتعلق بقدره، فإن حمى اللحظات الأخيرة حاضرة أيضًا.

يتذكر يوم ظل لساعات هائما على وجهه في انتظار نتيجة الثانوية العامة.

الصيدلة حلمه. لم يتخيل نفسه إلا صيدليا، كان يردد بثقة:

- أريد الصيدلة وحسب، هل هذا قليل على من هو مثلي؟

لكن لدغة الثانوية أصابته.

كان مجموعه، خلافا للمتوقع، لا يضمن له الصيدلة وفق تنسيقات سنين فائتة.

اكتئب وتردى وذبل.

نُحتت ابتسامة بائسة كئيبة على محياه. ولقد تخيل أن مستقبله قد انتهى.
لم يكن يحيى ضعيفا بحال، إلا أن الموجة كانت قاسية، الموجة عاتية هذه المرة.
كان ممتلكا لثقة داخلية كاسحة، ويؤمن بأنْ سيحقق حلمه مهما حدث.
نادى الصيدلة فلبت، واستجابت له، في تنسيق ظل ذكرى لسعادة الطالع.
انخفض تنسيق الصيدلة يومها للمرة الأولى منذ زمن، والتحق بها يحيى!
يتذكر اليوم تلك الذكرى المنقضية فيسعد.
يومها كان قد سهر حتى الصباح. كانت ليلة رمضانية فردية.
وقد التحق بالاعتكاف يومها يصلي ويدعو (كان حينها محتفظا ببقية باقية من تدين).
أتخمت عيناه بالسهر، اتصال هاتفي من صديق يرجح ظهور نتيجة التنسيق.
لم يكن قد امتلك شبكة إنترنت منزلية بعد، فهام في الطرقات، كان الوقت باكرا، لم تصل جرائد الصباح بعد.
مراكز الإنترنت لم تفتح أبوابها، انغلق ذهنه إلى أن تذكر أن هاتفه النقال الجديد ربما يتصل بالشبكة العنكبوتية.
في منتصف الشارع بحث عن تنسيقه، وفوجئ بأن الهاتف متصل.
حقا كانت الصورة غير واضحة بشكل كامل، بعض الأحرف مشوشة، لم تكن تقنيات الهواتف الذكية قد غزت الأسواق بعد، إلا أن الحد الأدنى للصيدلة كان جليا ولقد تخطاه، هل يبالغ إن قال إنه قد رقص جذلا في الشارع وفي نهار رمضان؟
يومها كانت الحياة بهيجة، ما تتمناه تلقاه ببعض الجهد والإصرار.
توقع أن تظل الحياة على نفس الوجه.
إصرار وتحدٍ يعقبه نجاح.
لم يتوقع قط أن يتغلب عليه الملل ويهزمه.
مرات قليلة كان يضعف ويحضر محاضرة ما.
يطل على المدرج إطلالته على العالم، بحر تتلاطم أمواجه، يتأمل وجها

هادئا خجولا.
موجة صافية شديدة الصخب، موجة مترصدة ملول، ما يطغى هو موجة لزجة، شديدة اللزوجة.
متباينة الأشكال والألوان، لها قدرة أسطورية على التشكل والتنوع والتباين.
إحداهن كانت تبدي آراءها التافهة بصخب كأنها محور الكون ومداره.
وكأنها سر الوجود، كيانه الأوحد.
معتمدة على ضيق زيها الذي يطرح تساؤلا ملحا متعاقبا مع انبهار الأنفاس، عن كيف ارتدته؟
آخر صامت، مُكتف بلزوجة النظرات، وأخرى تكتفي بظلال ابتسامة على وجهها تضمر الكراهية، يتأمل بنات دفعته، ويردد مقولته الأثيرة متصنعا العمق:
«فقدت بناتنا الأنوثة في حادث مريع، عشية فقد شبابنا لفن الرجولة»
لم يجزم يوما بأنه يحب أبناء دفعته، أولئك الذين دفعوا به إلى اتحاد الطلاب ابتداء.
يجلس بينهم فيتخيل نفسه محاطا بزلال البيض، لن تكون رائق الحياة بين زلال البيض!
غير أنه يوقن دوما بأن كل سماجة لا بد أن خلفها، عقدة، ألما، أو عمقا...
يتأمل المحاضر، يحاول تتبع كلماته قبيل أن يغلبه الملل.
الاستغراق في الملل، الإصرار عليه، والندم في الأخير على مغادرة فراشه الدافئ.
ويبدأ في خط كلمات عبثية بما يناسب عبثية المكان.
العبث هو ما يسيطر على أوقات المذاكرة.
الامتحانات؟ «عفريته»الخاص، الذي يخشاه فيتبدى له.
تلح ذكرى الامتحانات على ذهنه في أي وقت وأي مكان، فتفسد بهجته، فضميره يعذبه ولا يرتاح. كان قد اعتاد اللحظات الأخيرة.
أعصابه مشدودة كقوس.

مع انقضاء الامتحانات العملية ينعقد سوق المذاكرة وتروج تجارة ما يلزمها، ملازم وأوراق وأقلام وغيرها.
يتبدل وجهه حينها إلى وجه كالح كئيب.
ينطلق إلى امتحاناته منتشيا بالسكر وقد أصابته لوثة الامتحان.
وقتها تصبح أقل دعابة مدعاة لهستيريا ضحك طويل.
يشعر بأنه متعاط للمخدرات في تلك الفترة، يحاول بإصرار ودأب أن يحشو المعلومات حشوا في لحظاته الأخيرة.
ويبدأ مصارعة رومانية شديدة الوطأة مع أوراق الامتحان.
اعتاد أن أي امتحان في كلية الصيدلة يستلزم جهدا كتابيا يفوق حصيلة جهد الكاتب المصري الجالس القرفصاء منذ آلاف السنين (في حالة إذا كتب!)
ينتهي الوقت وقد استهلكه الجهد، قتله وأرداه.
يسلم ورقته وهو حرفيا لا يقوى على القيام.
سهر الليلة ماضية، صعوبة المادة، غموض الأسئلة، وقد صار طقسا يقارب الطقوس الدينية في الاعتياد.
ينطلق إلى الرفاق حيث يتبادلون ابتسامات بلهاء لم يفهم معناها بعد، إلا أنها حتما تشير إلى تكرار ما حدث كل مرة.
حقنة شرجية لا بد من تعاطيها في الموعد، وفي الموضع ذاته.
ينتقل تلقائيا إلى معمعة الامتحانات الشفهية، حيث قضي الأمر وانتهى.
زحام شديد على باب الممتحن كيوم الحشر، سائلين العرض على السؤال.
ينتهي الامتحان في شريعة يحيى بانقضاء زمن الامتحان الورقي، الامتحان الشفهي تحصيل حاصل، ضربة حظ!
تدافع الأجساد المتعرقة. يقترن ذلك الموضع في ذهنه بالروائح المقززة، غالبا ما يفضل الامتحان بصحبة ذات المجموعة، لديه أولويات، فلا يعاني من اختيار رفاق امتحانه الشفهي.
يعلم من يختار إن طلب الممتحن طالبين، أو ثلاثة أو حتى أربعة.
يختارهم تبعا لقربهم الشخصي منه ووفقا لمستواهم التحصيلي.

فليس له قِبل بمشاركة الامتحان بصحبة أحد السخفاء ممن يستحضرون روح المدرسة الابتدائية، ويسارعون إلى رفع أصابعهم لدى كل سؤال.
يقاوم رغبته في رفع إصبع مشابه في وجههم، في إشارة مركزة وذات معنى!
ولن يحتمل إن كان رفيقه من هذا النوع الذي شاع عنه مقولته لأحد الممتحنين:
- لقد أجبت أفضل من كل هؤلاء.
في إشارة إلى زملائه، بغية توريطهم.
وليس له قبل بمشاركة أحد أوائل الدفعة، ممن يدخلون الامتحان ليديروا شريطا محفوظا عملوا بجد لتحضيره، لأجل يوم كهذا.
ما أن ينتهي الامتحان حتى تتبخر أحلام الانطلاق والعبث، التي حضّر لها طويلا، جسده مرهق قد انتهكته الخطوب، وليس بوسعه سوى أن يدلف إلى المكتبة لاشتراء ما استجد من أوراق المادة التالية، ومن ثم التسكع في الطريق، ولربما دلف إلى مطعم لتناول طعامه كديناصور بري لم يأكل منذ قرن.
اليوم التالي دوما ما كان مثيرا ومميزا.
يعلم يقينا أنْ سيستيقظ في وقت من اليوم عجبا، يتساءل لوهلة: في أي مكان هو؟
يشعر كأنما أثقلته عصا ثقيلة طوال ليلته ماضية.
مع بدء دراسته في الكلية كان ضميره متيقظا، يصر على البدء في المذاكرة في هذا اليوم، يعارضه عقله مثلما لم يفعل يوما.
فالعقل يدرك فيما يبدو كيف يحفظ اتزانه.
غير أنه يحاول، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أن يتحصل على أي قدر من المعلومات.
كثيرا ما اضطر إلى إعادة الاستذكار يومه التالي.
مع تعاقب الامتحانات انتقل ضميره التحصيلي إلى رحمة الله، كان يصر وبكل قسوة وحسم أن يهدر اليوم كله في أي شيء وكل شيء ويردد دوما:

- اليوم خمر ونساء!
لكنه يدرك أي ذنب جنته يداه مع بدء يوم جديد.
واستعراض مادته بعقل استعاد صفاءه.
مع تتابع الامتحانات تبدأ أعراض «last week of exams syndrome» في الظهور.
متلازمة آخر أسابيع الامتحانات أو متلازمة لويس اختصارا. «LWES syndrome»
اكتشف أنها تظهر مع شهر الامتحانات الأول، ولقد صنف أعراضها وفق قواعد علمية دقيقة وملاحظات دوؤب.
لاحظ ظهور حالات إحباط قد تزيد، وتتضاعف مع الوقت.
ضعف الرغبة في المذاكرة، عدم القدرة على فهم ما يُقرأ.
الصراخ الشديد، والشعور بالضياع، وقد يتطور الأمر مرورا بظهور رغبات انتحارية.
تتأرجح الشهية، فقد يزيد الوزن ولربما نقص وفقا للظروف!
ولقد ألهمته امتحاناته وطبيعة دراسته أن يخصص بحثا علميا لدراسة تلك الحالة مستقبلا.
جفناه يوحيان بحلم ما، والممرضة هائمة في تأمل ملامحه لا تزال!

مع أول أيام الدورة التدريبية كانت ميار حاضرة.
تجتاز الدرج بخطوات واثقة، بعينين بنيتين بلون البندق، ملؤهما رهبة.
تحاول اجترار ابتسامة ما لوجه جميل خالٍ من الأصباغ.
مضى زمن طويل على أول يوم لها هنا.
يوم وطأت قدماها كلية الصيدلة عن غير قناعة، دوما ما رغبت في الطب، غير أن يد مصحح أثيم قد أطاحت برغبتها، أم كان شرودا ما دفعها لاستبدال كلمة بأخرى أو رقما بآخر بما يخالف نموذج التصحيح المقدس؟
أدركت تماما كيف أديرت اللعبة، والرهان، رهان دفعت ثمنه كلية لم ترغب فيها. ما أن انخرطت في دراستها وبدأ نضجها في التشكل حتى أدركت مقدار حماقتها، و«تأقلمت».
ها هي في آخر سنواتها الجامعية.
جميلة، وقد أدركت جمالها منذ زمن، مع أول لزج اعترض طريقها مقدما نفسه بصفته طالبا أكبر سنا و«هو في الخدمة»، بل تمادى ليمنحها رقم هاتفه، غير أنها صدته بحسم.
مثقفة، ذكية، تحمل نظرة إلى زميلاتها بأنهن أكثر غباء مما ينبغي، أو بالأحرى يوظفن ذكاءهن في ما يجاري المجتمع ويلائمه.
أما في ما يتعلق بها هي فلقد خرقت قواعد الشرقيين المقدسة، وقلبت الطاولة مع عريس سنتها الجامعية الثانية، الذي بدا متلهفا للارتباط.
انتبهت إلى تعامله معها «كلقطة» على الرغم من أنه لم يمض أيام على حضوره من بلاد الخليج، محملا بما يكفي من مال للارتباط بصيدلانية المستقبل التي توافقت مع معايير والدته الجمالية.
حدثته ساخرة عن مفهوم التوافق الفكري والثقافي في محاضرة سريعة متسارعة. أي علم تعلمته دفعك إلى أن تلتقي بفتاة للمرة الأولى وتجزم أن توافقا ما قد حدث بينكما؟
أي تفاهم سيجري بعد الخطبة؟ بل قل أي تصنع لتوافق سيتم؟ ليس لك قِبل بالمشاركة في تمثيليات مجتمعية سخيفة!

عصفوراي الملونان اختارا بعضهما بطريقة أكثر إنسانية من جلستنا تلك.
رفضته بحسم وقسوة في ذات الجلسة. بينما فر هو من تلك المجنونة ودروسها الحاسمة التي شكلت رعبا لازمه لفترة!
«يمكن للشرقي تقبل أي شيء إلا أن يرتبط بامرأة ذكية»
كان ذلك مما دونت في دفترها.
«المرأة الذكية وجدت في تلك البقعة من العالم لتثير الإعجاب، ننبهر بكلماتها، بمنطقها، نفغر أفواهنا إعجابا. ومن ثم نندمج في موجة من التصفيق أو السباب، ثم نتزوج بمن تختارها أمهاتنا».
«لا بد للزوج الشرقي أن يكون الأكثر حضورا، الأبعد نظرا، وإلا انقلبت الطاولة على الجميع!»
تراصت سطور دفترها حاملة نظرة شديدة الصخب والثورة تجاه العالم!
تتأمل كليتها من حولها!
مضى زمن طويل على اليوم الأول.
يوم طرقت أبواب الكلية بشعور هجين من قلق وفخر.
«بالطو»أنيق ناصع البياض. قضت وقتا في كيه ليلة الأمس التي غاب فيها النوم عن عينيها الرقيقتين، وتدافعت الأفكار عن كيف يكون يوم دراستها الأول؟
كيف ستكون كليتها؟ تساءلت رغم أن والدها اصطحبها لها قبلا.
لا يزال لليوم الأول رهبته مع كل شيء.
كيف ستكون محاضرتها الأولى؟ هل سيكون المحاضر شابا وسيما؟ أم كهلا وقورا يقطر العلم من فيه مذابا سائغا شرابه.
أم تراها امرأة عملت بجد لتوازن بين بيتها وأبحاثها القيمة واكتشافاتها المبهرة.
عملت لتكون أهلا لتلك المكانة العلمية الرفيعة.
قطعا لدى المحاضرين حضور طاغٍ، «كاريزما» اكتسبوها من ثقلهم العلمي وخبراتهم الطويلة.
يومها تعرفت إلى سها أول مرة. فتاة تحمل وجها بشوشا، وابتسامة

زجاجية، وزيا ملتزما، وحضورا سمحا عذبا كقطرة ندى «متكلفة»!
التصقت بميار على طول الخط. اهتمام مكثف بها، دروسها، صلاتها! أفكارها أيضًا.
هدايا بسيطة بدءا من أقلام خط عليها عبارات حماسية عن عزة الإسلام، وصولا لأجندة رسم على غلافها صورة بادية الحسن لمسجد قبة الصخرة، وعبارة مقفاة عن المسجد الأقصى والعودة إليه!
في خلط شديد الشيوع بين المسجدين.
راقت تلك الأشياء لميار أول الأمر، فثقافتها تحمل في جانب كبير منها «متعلق بالنشأة» اهتماما لا حد له بحضارة الإسلام.
لاحظت ما أبدته سها من اهتمام بالتاريخ، فتساءلت ببراءة إن كانت قد اطلعت على التاريخ الفرعوني «بغية ترشيح كتب بعينها».
لاحظت تجهم سها، انبراءها للدفاع كأنما تدرأ تهمة!
- من تحدث عن تاريخ فرعوني أصلا؟ إنما أعني التاريخ الإسلامي! ثم إن معرفتي بتاريخ ديني فخر يغني عما سواه!
بدأت التساؤلات تطرق عقل ميار، ببطء وحذر وإصرار.

انتبهت من أفكارها لتتأمل بترقب طالب الفرقة الأولى «يرتسم اسم فرقته على وجهه»

حيث تتباطأ سرعته ومن ثم يتوقف ليقرأ أحد الملصقات العتيقة الموجودة هنا منذ عهد «أبقراط».

ومن ثم يتجه لينظر من النافذة نحو الأفق البعيد.

ترى كم منهم مر بذات الموضع وألقى تلك النظرة التي تختلف الحياة بعدها عما قبلها؟

نظرة كاثوليكي أوروبي استيقظ يوما ليكتشف أن القس كان يخادعه طوال سنوات عمره، وأن الأرض كروية تدور في فلكها حول الشمس!

نظرة من تطاير فرحا منذ أيام قلائل حيال معرفته أن قد صار «دكتورا»

ميار الآن، والآن فحسب، قادرة على الحكم بحياد.

إنها تقف على الخط الفاصل بين هنا وهناك.

تغوص في شعور كاسح بأنها لا تنتمي لهذا المكان، وبأن قد حان زمن الرحيل.

شعور ينتابنا في الفترة الفاصلة بين مراحل الحياة المختلفة.

تتذكر الآن كيف كانت ساذجة منذ خمس سنوات!

مع كل هذا الوهن الذي يلف حياتها، لمَ توقعت أن داخل هذا المكان قد يختلف عن خارجه؟

«لمَ توقعت أن الانتقال من الثانوية إلى الجامعة سيفرض واقعا جديدا؟

أو يعني الانتقال من حياة الحفظ إلى حياة الفهم والتجربة والإدراك!

لمَ توقعت أن الوجود بالمعمل يستلزم، بالضرورة، وجود تجارب علمية عظيمة الأثر في صناعة الدواء؟

ولمَ غاب عن ذهني أن الأمر، أولا وأخيرا، خطوة مبدئية في دراسة أكاديمية جافة نتفوق فيها ونجيدها، وتتراص شهاداتنا فيها جنبا إلى جنب في صورة هرم يعني العدم في سير البشر، وحضارة البشر وتاريخهم؟

بل لمَ لمْ أوقن منذ الصدمة الأولى بمحاضر متوسط الحضور يمنع التهذيب

من وصفه بالدهولة، وبمادة علمية صلبة شديدة الجمود، بأننا لا نزال، وسنظل طويلا، جرحا ملوثا شديد الإيلام يقع في مؤخرة البشرية، ويقتصر دوره على تذكيرها الدائم بدوره المتأصل في حضارتها ونهضتها، مثنيا إياها عن الجلوس ولو قليلا لالتقاط الأنفاس؟»

كذا دونت في دفترها..

ودت سها لو تتبعت ميار أبدًا، في نوع من الملاحقة الدائمة، تصر على اصطحابها في كل حين، تناقش أفكارها، قناعتها، وتحاول استقراءها بلا دأب.

تزج بسخرية مستترة هنا وهناك.

تتساءل بلهجة ساخرة ممطوطة أحيانا، وبود شديد أحيانا أخرى.

تحدثها طوال الوقت عن الإيجابية، تقديم الدعم للناس، أن نحلم بمستقبل أرقى!

أن نحترم المخالف. تراقب ميار تصرفاتها عند الاختلاف فتعجب.

مع قرب الامتحان النصفي بدأت سها في اصطحابها إلى مجموعات شرح يقوم بها طلبة الدفعات الأكبر سنا.

تنعتهم سها بأخواتنا المحترمات، في تورية ما.

تراها تورية مستترة لشيء تعجز عن التصريح به؟ تتساءل ميار.

أم لا ترغب في التصريح به من الأساس؟

مع اتساع رقعة الفتيات اللواتي تعرفت عليهن ميار، عن طريق سها، بدأت الصورة تتضح أكثر، فهن ذاتهن من استقبلن طلاب الفرقة الأولى في اليوم الدراسي الاول لهم، ملوحات بتبعيتهن لتنظيم يميني شهير.

ومع إجراء بعض الأبحاث من خلال الشبكة العنكبوتية، بدأت الخيوط تتجمع في ذهن ميار.

كانت تمر بعملية غسيل دماغ منظمة يعرفونها بالدعوة الفردية.

وبدأت في تسجيل خطوات الدعوة الفردية تلك، والإشارة بعلامة الصحيح أمام ما طُبق عليها!

وراق لها في الأخير أن تلاعب سها بأوراق مكشوفة للمرة الأولى!

فبدأ من التقرب منها، إظهار الود، الهدايا، الشرح، تقديم العون بلا طلب، كانت تلك خطوات يتبعها أفراد التنظيم مع عشرات سواها، وفق عملية مدروسة لا عفوية مثلما بدا لها الأمر.

تصاعد الأدرينالين في جسدها إثر تذكر أجواء الإثارة التي صاحبتها لدى

قراءتها لرواية شفرة دافنشي.

أجواء الجمعيات السرية القديمة وطرق الانضمام إليها، غير أن الأمر على طريقته المصرية كان مثيرا للملل وأقل إثارة!

لكن لمَ عمدت سها للتورية منذ البدء؟ لمَ لجأت لتغليف الأمر بعلاقة إنسانية راقية، كالصداقة، بغية إقناعها بمفاهيم فكرية أيا كان فحواها؟

- هل تتبعينهن؟

كان سؤال ميار صريحا.

- لمَ هذا السؤال؟ ما الضرر في أن أتبعهن؟

لم تتصور سها أن تصارحها ميار بتلك البساطة.

- لا أتبعهن قطعا! انضمامي لهن يزيدني فخرا، غير أن هذا شرف لا أستحقه بعد.

لم تفهم ميار إجابتها حق الفهم، إن لم تكن تتبعهن فلمَ تريد منها ذلك؟

وإن كانت كاذبة، فهل تعتبرها صديقة فعلا؟ أم مجرد صيد!

وإن لم تستوعب الأمر برمته ولم تلجأ للتنظير، فقد رأت في خلط الإنساني بالفكري بهذا الشكل أمرا لاأخلاقيا!

خيوط العنكبوت بدأت في التشكل، انفضاضها عنهن جريمة لا تغتفر، تجديف صريح ضد التيار، ولربما ضد صريح الدين مثلما لوحت سها في تعبير مراوغ.

لكن منذ متى وميار تجدف وفقا لأي تيار أصلا؟

منذ الصغر ونظرة ميار للدين متأصلة وعميقة.

تراه كمنة من الله عليها، تفتخر بإسلامها أيما فخر، ترى فيه عزا.

تتذكر بشيء من الشجن ذكريات طفولتها المتقدمة.

يوم التحقت بمدرستها الابتدائية وأدركت للمرة الأولى الاختلاف العقدي بصورته الأولية.

يوم أن أدركت أن رفيقة مقعدها، تلك الفتاة الرقيقة التي أحبتها، «مسيحية».

لم تستوعب وقتها مدلول الكلمة، غير أنها عرضت عليها بكل براءة أن تعتنق الإسلام.

بل واقترحت بود أن يصير اسمها «زينب»

- اسم جميل؟ أليس كذلك يا زينب؟

تتذكر رقتها المتعمدة إذ تنطق الاسم بمكر طفولي محبب.

لم يستوعب عقلها الصغير أن اسم مريم يناسب المسلمات كذلك.

بل لم تلتفت إلى كثرة عدد «المريمات»المسلمات اللواتي يملأن الفصل.

بحكم قواعد الترتيب الأبجدي لتوزيع الطلاب فقد رافقت ميار، عبر سنيّ الدراسة، عشرات المريمات.

إلا أن مريم «المسيحية» صديقتها الأولى ظلت على مكانتها في قلبها.

ولقد صادفتها مرة أو مرتين إثر تلك الحادثة في الفناء، إذ إنتقلت لفصل مجاور لسبب لم تدركه ميار حينها.

تذكرتا تلك الأحداث حين التقيتا منذ مدة، فمريم ذاتها التحقت بكلية قريبة في ذات الجامعة، وتبادلتا يومها ضحكا طويلا وصادقا إثر الذكرى.

كانت القاعة مكتظة تماما قبيل دقائق من وصول باسم، ما دفع بميار إلى حجز المقعد المجاور لأجل نهى التي قررت الاشتراك مع ساعات الصباح الأولى.

ما كان هذا ليتم لولا وجود ميار بين منظمي الحدث.

الضجيج الأنثوي الصاخب فيما حولها يصيبها بالتوتر.

المؤنث حاضر وبقوة فيما يبدو.

تتلفت حولها، يذكرها الجمع بأول أيامها في مدينتها الجامعية.

المدينة الصاخبة المفعمة بالفتيات اللواتي يذرعن الطرقات صارخات شغوفات بالحياة، مشاهد جديدة لم تعهدها ميار وقتها.

الجانب المظلم من القمر.

الفتيات بصورتهن الخام، قبيل مرورهن بعمليات التكرير والتحلية.

أولئك اللواتي تتناثر شعورهن هنا وهناك على فطرتها، بُعيد تقييد ليوم كامل تحت غطاء رأس.

يُعن بعضهن بالمظهر والهندام، فيقمن بتصفيف يومي يضمن لهن مظهرا مقبولا.

في حين تبدو الأخريات شعثات كجندي فار من جيوش هانيبال.

هنا تنطلق الفتيات بأصواتهن الصاخبة كسرينة إنذار، وضحكات كيفما اتفق، ضاربات بعرض الحائط تلك الصورة التي تفنن في إبداعها الأدباء والشعراء لبنات حواء.

أغانيهن المرحة التي تكثر وسطها أغان شعبية خليعة، يبدين امتعاضهن منها في ظاهر القول، ويتغنين بها إذا ما دلفن إلى مملكتهن الخاصة.

وعلى الرغم من أن ميار إحداهن في الأول والأخير، فقد سرها أن تدلف إلى تلك المملكة الخاصة من بوابتها الخلفية.

هنا تساقط الأقنعة!

أي قناع بشري يصمد لأربع وعشرين ساعة؟

وتراه صمد حيال الاستيقاظ، فهل يصمد حين الغفلة إذ يتقلبن في الأسرة؟

ولربما صدر عن بعضهن معزوفات مما لا يستحب سماعه.
أم هل يصمد حال التدافع الصباحي على دورات المياه ليلحقن بيومهن الدراسي؟

انتبهت ميار بغتة إلى مدخل المدرج، فهناك كانت نهى في أجمل مشهد تراها عليه منذ عرفتها!

لم تقدر ميار حجم الثقل الملاحق لخطوات نهى.

حدثتها كثيرا عن الدورة التدريبية الصيدلية، عرضت عليها الحضور، ولما أدركت روعة الفكرة زادت في الإلحاح.

الدورة ستمتد لأيام قلائل، ليست باهظة الثمن، أجواء احتفالية، يحضرون لمفاجأة ما في الأيام الأخيرة منها.

محاضر مميز فرض اسمه وجوده في السنوات الأخيرة.

اهتزت نهى كعصفور مبتل.

يطرقها الاسم من جديد، يخفق قلبها مثلما خفق من سنوات «بالضبط»

ذاك الذي سكن وجدانها منذ أمد، وما زال له في القلب مستقر.

الذي رحل تاركا روحها وكيانها صحراء جدباء قاحلة.

تنفض الأفكار الملحة بإصرار ودأب.

كلا.

لم تمض تلك السنون عبثا، محاولاتها المستميتة للنسيان لم تنفضّ ليطرقها الحنين حال ذكر اسمه.

تعيد التفكير، ها هو قد نجح في حياته لا كما راهنت.

لم تتمن فشله صادقة.

تعجبت: كيف لم تصادف اسمه مع كل تلك السنوات؟

ولا حتى حسابه الشخصي على فيسبوك!

طلبت حسابه من ميار وقد أدركت أن ساعتها المقبلة ستحمل الكثير من الشجن.

تتأمل جسدها في قميص منزلي نيلي اللون.
بنطال متوسط الطول يكشف عن ثلث ساقها على الأقل.
إنها بحاجة إلى إنقاص عدة كيلوجرامات من وزنها، كذلك فكرت قبل أن تدلف إلى فراشها الوثير، تحكم قبضتها على قهوتها الساخنة، ومن ثم تنساب الموسيقى الهادئة عبر الغرفة، منبعثة من حاسوبها النقال «لاب توب»
تتفادى بكسل إتمام رواية مشوقة.
ومن ثم تدلف إلى «فيسبوك» حيث جنتها المشتهاة المحرمة.
تدور دائرة تحميل الصفحة، في حين يتراقص قلبها تحفزا وشوقا.
تتبدى صورته مثلما تخيلت.
يقف ليحاضر راسما أعذب ابتساماته.
تتابع كلماته، عباراته البراقة.
كعادته دوما يعمد إلى تعويض خوائه الداخلي بادِّعاء العمق.
هي خير من تدركه، تحفظ سبله، تراقب في صمت.
يخفق قلبها في عنف، اشتقت إليك يا باسم.
شدما اشتقت إليك!

لم تكن نهى لتغالب رغبتها في رؤيته.

على مر ساعات طوال قضتها على حسابه الشخصي تتابع كل تحركاته تقريبا، مراقبة صامتة خجول، تقرأ كلماته مرة فثانية، ومن ثم تتخيله وهو ينطقها، تستحضره وهو يقرأ التعليقات ومن ثم تحيا في جنة من الأحلام.

أحلام محلقة ترفرف بها نحو النجوم.

أحلام أخرى من طراز عابث مجنون، لم تتوقع قط أن تحياها أو أن توجد في مخيلتها.

مرت الساعات سراعا، لم تدر بنفسها إلا وهي تهاتف ميار، تتسمع صوتها الناعس طالبة حجز مكان لها في دورة الغد بلهفة.

- لا مشكلة، سأبذل جهدي، بإمكانك الحضور صباح الغد.

تتسارع نبضات قلبها خوفا كأنما ضبطت بجريمة، وجزعا من أن تعجز ميار عن الوفاء بوعدها.

فلقد تبينت كيف امتلك باسم آلاف المعجبين ممن يلاحقون دوراته حيث حل، وتوقعت أن يكون حضور الأمس كاسحا.

عادت لتتأمل كلماته من جديد، وبلا وعي أرسلت طلب صداقة لحسابه الشخصي!

أنيقة هي دوما، غير أن أيا ممن عرفوها كان لا بد أن يلاحظ أنها مختلفة هذا الصباح.

- أنتِ خرافيَّةُ الحسن هذا الصباحَ.

تغمز بها ميار.

متوردة الوجه، متناسقة الجسد. هي نفسها انبهرت ما أن طالعت المرآة وتعجبت.

تراه الأمل مفتاح السر؟

الأمل الذي ينبثق من موضع في ذواتنا قصي.

يشرق على وجوهنا، يصبغ نفوسنا ببهائه.

تراه ذاك المكنون السحري الذي يفرض نفسه، يكتسح كل ما عداه مما

لحق بنا، من يأس وإحباطات.
يجدد أرواحنا لتعود سيرتها الأولى، صبغة ربانية صبغ الله بها الأرض، ثم كسا العظام أملا وبهجة!
صهرتها الحياة، انتهكتها، مزقت منها كل ممزق، وتبدت نهى وحيدة، ضعيفة، بائسة لا تقوى على خلاص.
فإذا بها قد لاح أمل خلقا آخر، ووجودا آخر، بل ذاتا أخرى.
أم تراه الحب؟
عنقاء أسطورية أخرى، غطاها الرماد، انقضت عليها السنون.
حتى إذا ما أيقن الجمع بهلاكها إذا هي تبرز من جديد نافضة رماد الإهمال، وغبار الهجر. متشكلة في أروع حلة، وأبهى وجود.
عنقاء فاتنة كحورية جنة، ملساء كحية ذات سم زعاف بلا ترياق.
كإبليس ملعون أبدا، يجري من ابن آدم مجرى الدم، فما استطاع الخلاص.
تراه الحب انبعث، بعد كل ما انقضى، خلقا جديدا فسيرها كيف شاء وانطلق بها إلى ساحته.
وسيم باسم، كذا تبصره بعيني أنثى محبة.
انساب صوته إلى أذنها أسطوريا رومانسيا حالما، وعلى الرغم من التفاتها عن فحوى كلامه فقد وعته.
سؤال عسير كانت قد أهملته قبلا مرات، يطرقها اليوم بلا هوادة.
حين أحبته لم يكن ذلك المحاضر المتأنق الواثق، بل على العكس تماما، بدا خجولا انطوائيا معدوم الثقة.
تراه درب من الشفقة اللعينة التي أرقتها لدى أول لقاء؟
ولكن في أي مرحلة شيطانية وعلى غفلة من الزمن أنبتت بذور الشفقة حبا؟
صيرتها من ثم عشقا أليما، يمزق نياط القلوب كمخلب قط حاد عبر سنوات طوال.
أي تفاعل خبيث ذلك الذي جرى في قلبها على حين غفلة من حارسها الأمين؟

فلقد صيرت نهى سنوات الدراسة مما قبل باسم (إذ عدت يوم حب باسم مفتتحا لتقويم جديد)، صيرت لقلبها حارسا أمينا، هو هجين من ترقب وقلق وخوف.

مما يقيها بأس الحب، ووجع الفراق، وإن لم يقِها تلبس الوله، ما أن التقت عينيه، يطرقها السؤال بلا هوادة! لم أحبت باسم؟

القاعة ممتلئة عن آخرها، لا موضع لقدم. الجموع متلهفة. وباسم يخطو عبر القاعة ببطء. خطواته راسخة ثابتة.

مذبح أحلامه القديمة.

وصورته في مخيلته ظافرا منتصرا.

يتمنى لو كانت كل تلك الصور الملتقطة ذات جودة عالية.

إحداها ستؤرخ تلك اللحظة أبدا كملخص لحياته وخاتمة!

كالعادة، دورة جديدة، ما يعني المزيد من الترحال، ووجوها عدة، ورقما آخر يضاف إلى صفحة متابعيه على فيسبوك.

والأهم، أصفار ذات عدد لا بأس به تضاف إلى رصيده البنكي على سبيل المجاز (فباسم يعمد إلى حفظ مدخراته في موضع أمين بشقته).

من ادعى إذن أن الصيدلة ليست وسيلة رائعة لجني المال؟

على هذه النقطة ترتكز دعايته، ولا بأس من بعض التوابل، الحديث المستمر عن القيمة، الهدف، الرسالة، كل تلك الغطاءات الأخلاقية الممتازة التي تبرر المبالغ الباهظة نسبيا، كلفة دوراته التدريبية.

تضاعفت شهرته أكثر من مرة في الفترة الأخيرة.

وصار بالإمكان ترجمة العلم الصيدلي التطبيقي إلى قيمة ذات أصفار على اليمين.

بث الأمل في نفوس الصيادلة الصغار، بأن المستقبل ليس بهذا السوء الذي اعتقدوا، وبأن بالإمكان إن هم بذلوا بعض الجهد أن يحققوا نجاحا ما.

لا يقدم ابتكارا، فما تزخر به دوراته التدريبية هو نتاج بحث في عشرات المراجع العلمية والمواقع الطبية، قبيل تغليفها بإطار محبب من التبسيط والأسلوب الأخاذ.

أدرك العوامل النفسية للتشويق، مزيد من الفديوهات الدعائية، المودة الزائدة حين التعامل مع المتابعين، تغليف ذلك كله بتواضع وخفة دم وقليل من التدين العصري! الذي لا يؤذي أحدا ولا يعمد إلى التشدد ولا يميل إلى التحرر.

بجسده غير المتناسق، المائل للبدانة، وبحضور طاغٍ، كاريزما أخاذة ضربت الصورة التقليدية لأصحاب الكاريزما في مقتل.

وبصوت جهوري حاسم فرض نفسه وبقوة.

صار باسم اليوم هو المفهوم المجرد للنجاح.

صار أيقونة.

خطوات مهنية ناجحة، شهرة ضاربة، دوراته تمثل الصدارة على مستوى الحضور والأرباح.

وإلى جوار ذلك يدير صيدلية متواضعة تدر عليه أيضا بعض الربح.

لسنوات قلائل مضت ما كان لمراقب أن يتوقع لباسم، ذاك الفتى الريفي التقليدي أو ما دون التقليدي ربما، سيكون له هذا المستقبل المشرق.

باسم الفتى الخجول المتشكك الذي شوهد لمرات مصطحبا فتاة خلسة إلى كافتيريا الكلية، في أكثر أفعاله جموحا!

بركانه الصاخب الذي كان يموج في نفسه طويلا انطلق عقب التخرج، وقد تمثل له النجاح المهني والمادي هدفا.

قمة هرم التمسها نبراسا.

ولقد مضى ممتنا للأقدار إلى المنتهى.

باسم ومنذ يومه الأول كان قد أدرك أن الإنترنت بوابته الخلفية لعالم من التواصل تختفي فيه الحواجز، وتتكسر القيود، بوابته التي أطل منها على العالم بلا مصاريف دعائية طائلة أو تكاليف باهظة.

بدءا بالمنتديات التي أدمنها لفترة مرورا بيوتيوب وفيسبوك انتهاء بإنستجرام!

تجاوز رقم معجبيه على صفحات التواصل أرقام معجبي العديد من المشاهير، رغم اعتماد شهرته على رواد المجال الطبي فحسب!

أذكى نتاج جهده، فمهما يكن يومه شاقا لا ينسى تخصيص وقت للتواصل مع محبيه ورواده عبر عوالم فيسبوك.

يشاطر بعضا من آرائه المتبسطة أحيانا، يجهز ردودا منمقة دبلوماسية.

يدس دعايته بين الكلمات باحترافية فائقة.

يطالع كتابًا رشيق العبارة، ليخرج بمعنى بسيط يشاركه مع متابعيه، قبيل أن يدلف إلى يوتيوب ليتابع ما استجد في علمي المحاضرة والتسويق.

لقد أفاد كثيرا من ذكائه واجتماعيته «المستحدثة»مضرب الأمثال، ذهن حاضر، أسلوب متماسك يُحيي اللب والوجدان.

قدراته العقلية جلية وقراءته للأفراد والشخوص مثار إعجاب.

سواء إدراك ذلك أم لم يدرك، فقد تبدلت كثير من آرائه وقناعاته في السنوات القلائل بُعيد التخرج.

فولت وجهها شطر المصلحة والفائدة، تغير تدريجي يصعب إمساك أطرافه وبداياته.

من قبل، دأب باسم على اعتبار الكليات الخاصة وسيلة لجني الربح، والاتّجار بالعلم وتحويله إلى شهادة ورقية قابلة للشراء.

شعر قديما بالظلم، حين تأمل رفاقا كان يراهم دون المستوى قد التحقوا بالدراسة في كلية مناظرة لكليته التي بلغها بشق الأنفس، استثاره كثيرا أن يدرسوا من العلم أقله ويتحصلوا من الدرجات على أعلاها.

وسط محاكاة متقنة لدراسة أرهقته.

اليوم يجد غضاضة في التصريح بذلك.

بل يبدي ترحابا بطلاب تلك الجامعات، إذ هم أقدر ماديا على الالتحاق بدوراته المكلفة.

في حين يؤجج شعورهم بالنشوة لتحصيل علمه، ويذكي محاولاتهم المستميتة في إثبات ذواتهم.

تدخل كثيرا لتغيير مسار صراع اشتعل حول جدوى الكليات الخاصة على صفحته، بل نمق ردودا لإفحام من حمل ذات أفكاره القديمة، ضاربا أمثلة تقليدية لجامعات وكيانات راقية، متجاهلا كونها استثناءات من بين أعداد الخريجين الضخمة التي تضخها الجامعات الخاصة كل عام، «جامعات البيزنس»كما أسماها قبلا، وكما تجاهل تسميته ومَجَّها اليوم.

اليوم، واليوم تحديدا، في قمة مجده ونشوته كنموذج لنجاح مجرد، ينتابه شعور مباغت بالتضاؤل.

الفقد القديم ولوعته.

وخزة قاتلة تصيب فؤاده.

البحث عن تكامل مفقود.

ربما، كان شعوره يوم دلف إلى كافتيريا الكلية مصطحبا نهى بزيه التقليدي وسمته الريفي مثار السخرية، ربما كان يومها أكثر اتزانا وثباتا من اليوم، إذ كان باسم حقيقيا يومها.

لم ينس قط أن ارتباطه بزوجته جاء تقليديا نمطيا.

نسيم عابر لا تتخلله ريح.

حياة جامدة بلا تقلبات ولا مفاجآت.

«ليس منطقيا أن تقضي حياتك إلى جوار أحدهم من باب الواجب الإنساني، فكيف إذا ما انقضت حياتك الزوجية كلها على هذا النمط؟»

سفينة مستقرة تشق طريقها المرسوم سلفا عبر بحر هادئ، دون أن تتعرض ولو لدوار بحر.

النمطية قاتلة!

النجاح المستمر يدق رأسه بضغوط عصبية متلاحقة.

الزوجة المتدينة الورعة تلاحقه كالكابوس!

تطل عليه تلك الأفكار، كم تاق لأن تكون زوجته مقصرة، إذن لمنحه هذا غطاء أخلاقيا ممتازا ومبررا مستساغا لأفكاره المعربدة.

لقد فقد الكثير وإن تبدى للعيان رواج تجارته.

أم تراه افتقد لذة التملك بدعوى الابتذال؟

هل تلك هي الحياة التي أملها؟

زوجة محبة متفانية لإسعاده.

ابن مدلل ينمو أمام ناظريه.

ابنة جميلة ورثت حسنها عن أمها، ترتسم على محياها ابتسامة تشرق

لأجلها حياته.

تنتظرها في الغد حياة مرفهة لم يُقدر له أن يحياها.

صيدلية تدر دخلا معقولا، دورات تدريبية يقصدها جمع وافر، اسم رنان، شخصية ذات حضور كاسح، يفرض نموذجا جديد للنجاح.

لازمه التوفيق، غير أنه روى غراسه بالجهد، وها هو اليوم يحقق أهم أحلامه، ومع ذلك يشهد تهاوي عالمه في لحظة أن أبصر عينيها.

فأمام باسم، وفي الصفوف الأولى من المدرج، كانت حاضرة، خرافية الحسن كما عهدها دائمًا.

هناك كانت نهى!

يثقل الحمل كاهل جمال مذ كان صغيرا. حب لا حد له يكنه والده لأخيه الأكبر، بينما يراه متفلتا عابثا لا يصلح لشيء.

حتى حين ارتحل للعمل في العاصمة رأى فيه هاربا آبقا.

مع أن الأب ذاته قد قضى شطرا من طفولته هناك في القاهرة، قبل أن يعود الجد بالأسرة إلى سيناء.

لم يحدثه أبوه مثلما حدث أخاه عبد الله عن سنوات تيههم الأربعين، التي لاحقت أهل سيناء بدءا بتولي «الطاغية»، كذا سمى الأب «مبارك».

يرى جمال في أبيه وأخيه نموذجا رومانسيا حالما، هو الذي بهرته المدينة بأضوائها وألوانها الفاتنة، لم يستوعب بعد كيف تبهرهما الصحراء القاحلة تلك؟

يحب سيناء؟ قطعا، لا ينكر.

الطبيعة الساحرة، الجمال الأخّاذ في بعض المناطق.

ذلك الرابط السحري الذي يربط تلك البقعة المقدسة بأهلها.

غير أن حبه حب عذريا، لا يسمح فيه بالالتقاء بالصحراء أو التجانس معها.

حب يختلف عن حب أبيه وأخيه الذي تراه جليا في أعين أبصرت بأنوار قمر سيناء.

دماء امتزجت برمالها يوما فما استطاعت منها فكاكا.

الوضع الآن اختلف بعض الشيء، مع المناوشات العسكرية التي جرت في تلك البقعة، ومع سقوط أخيه قتيلا منذ أيام قلائل على سبيل الخطأ، وفقا لإعلان الجهات الأمنية.

تعقد الأمر تماما إذ بدا أن عودة جمال إلى القاهرة درب من خيال.

أبوه قد بلغ من الكبر عتيا، بل إن زوجة أخيه في طريقها لأن تضع حَملها بعد أيام، الطبيب يتوقع ولادة قيصرية تتطلب مالا.

الطفل المضاف إلى الأسرة عن قريب يحتاج لمصاريف طائلة.

وما يملكونه بالكاد يكفي لسد الرمق، لا عمل هنا أو هناك.

ماذا عن العاصمة؟
سيكون آبقا حقا في نظر نفسه قبل نظر أبيه إن رحل. لم ينجح في العمل هناك مثلما خدع نفسه مرارا.
حاول أن يعمل في أي شيء وكل شيء غير أن الفشل لاحقه كظله، لكنه كذا لم ينجح في العمل هنا.
إن عمل هناك بدافع إثبات نفسه وولهه بأضواء العاصمة فبأي دافع سيعمل هنا؟
تلاحقه نظرات الأب اللائمة أنى ارتحل.
أبوه مؤمن حقيقي. يردد أنْ «قدر الله وما شاء فعل»
و«لله ما أعطى ولله ما أخذ»
لم يقنط وقد انحنى ظهره بمقتل فلذة كبده.
إلا أن جمال يشعر بأن أباه يحمّله مقتل الأخ.
وكأنما كان أولى به أن يعمل بديلا عنه أو أن يُقتل فداء له.
الآن، يجلس جمال في فناء الدار متأملا.
منزل بسيط من طابقين مبني بالطوب اللبن، سقف بائس تتخلله عروق خشب متهالكة أعياها القدم، تنم عن ضيق الحال وشظف العيش.
بالأمس سار في بلدته تحدوه الخطى، بيوت فقيرة متباعدة يتباعد بعضها عن بعض، إذ قل عدد ساكني البلدة.
بيوت تنغلق أبوابها بعد صلاة العشاء، ومن ثم يأوي أهلها إلى خدورهم.
الملل الشعور الأبرز، تختلف الحياة تماما عن العاصمة الصاخبة.
بل تختلف عن الجنوب كذلك.
جنوب سيناء الصاخب الذي قضي فيه شهورا قلائل يعمل مع أخيه، أو يتظاهر بالعمل.
مجموعة من البدو كان قد انضم إليهم، يتذكر أمسياتهم العابثة.
سهراتهم الحمراء التي يتخللها تراقص أجساد أنثوية مُفعمة بالحياة.
دخان الحشيش يغلف المكان، يلفه بسحره.
دخان الحشيش لازمه فترة، حد أن صار طقسا.

وإن صار متعثرا في الفترة الأخيرة نظرا لضيق الحال.
يشده إلى تلك الأيام روح البداوة التي عاشها.
بداوة متمردة صاخبة، لا تداني وجه أبيه الورع ومسبحته العتيقة.
ولا رجولة أخيه ودماثة خلقه.
ما يشده لتلك الأيام أن لم ينظر له أحدهم نظرة دونية كنظرة أهل الوادي، حيث يشعر بالغربة.
برزخ معنوي شديد الثقل، ذاك الذي يفصل الوادي عن شبه الجزيرة، تتعدد حوله المشاعر وتدور الحكايا.
حين يصل سيناء يشعر كأنما اجتاز بعدا آخر.
وحين يعبر إلى الوادي يحس كأنما انتقل إلى أتلانتس المفقودة.
عالم ساحر جميل جدا، غير أنه لا ينتمي له.
شعور العزلة مرير قاتل. لقد فقد جمال ذاته منذ زمن.
منذ أن راه والده كَلّاً أينما يوجهه لا يأت بخير!
يتأمل السور المنخفض الذي يحيط بمنزلهم، مسورة حياته بمثله.
بل مشرنقة.
شرنقة من العزلة تحيط به، تضيق الخناق.
تلتف وتلتف، الشرنقة تمنح يرقتها الحياة، تخرجها خلقا جديدا.
غير أنه أدرك أنْ سيخرج من شرنقته ميتا.
كذا يعتقد ويؤمن.
بالأمس تأمل منازل من الطوب الأحمر المحترق، ومنازل غُلف طوبها بطبقة إسمنتية مُدعمة، بل وأخرى مدهونة ملونة.
حقا كانت الألوان قاتمة، تحمل طابعا حزينا ذا شجن، كطابع ساكني الديار، إلا أن هذا في حد ذاته تحول فريد.
ستتطور سيناء حتما، عجلة المدنية قادمة لا محالة.
أبناء سيناء النازحون إلى الجامعات ليستنشقوا العلم غضا، سيعودون مُحملين بطابع المدنية والحداثة.
ربما بعد أعوام قلت أو كثرت. لا يهم.

يتذكر جمال شطرا من طفولته، كم ود لو يكبر ليصير شرطيا.
ها قد كبر، واستقر في وجدانه أنها محرمة عليهم «لأكثر من أربعين سنة ربما»
السلطة والنفوذ الممنوحين للشرطيين وضباط الجيش لا يُمنحا إلا لأبناء الوادي.
قانون غير مكتوب، غير أنه يطبق خيرا من آلاف القوانين التي حوتها الدفاتر.
كسيناوي سيظل موصوما بالشك ما حَيي.
أضف إلى ذلك شقه البدوي الذي يبغض السلطة.
يبغض التقيد، فهو ومع إقامته في القاهرة لا يزال يحمل جينات سيناوي عاشق لحياة حرة، بعيدا عن قيد حكومة تكبله وتضيق عليه.
الشرطة لم تَسع قط لكسب ودهم، كثرت المظالم، زاد النهب.
كان من المنطقي، في فترة، أن يُرحل أهل بيت من بيوتهم تحت دعاوى حفظ الأمن، ومن ثم اعتذار باسم يُقدم أو لا يقدم وانتهى الأمر.
يتذكر تحقيقات الشرطة مع والده في الماضي، والده المسالم البسيط، تحقيقات مكثفة لا تخلص إلى شيء، ونظرات شك لا تنتهي.
زارتهم السلطة عن قريب، ما أن ترحل قوات الأمن حتى تعتبر جماعات الجهاد والده متواطئا مع السلطة، ولربما سعت إلى قتله، وما بين طرفي رحى تدور المأساة.
الغربة في نفس جمال قاتلة.
منتهاها موقف عربات الأجرة الذي يتوقف العمل به عند المغرب.
حيث تتعلق سبل الفرار.
عم كمال، السائق الصموت، البائس أبدا، المصاب بداء السكري، يرمق زبائنه بنظرات ساخطة متعالية.
عربات متهالكة قليلة متراصة، ورائحة عرق مقززة.
أقداح شاي ثقيل يتبادله السائقون. ربما أقراص مخدرة كذلك مما يعين على السهر، ويقي وعثاء السفر، ويغشي كآبة المنظر، غير أنها لا تمنع

دوما سوء المنقلب.
مع كل تلك التركيبة البغيضة إلى قلبه فهي تذكرته الوحيدة للانطلاق إلى أتلانتسه المفقودة.
الحسناء الناعمة الغنوج التي تأباه.
والهرب من بدوية ساحرة تهواه.
ترزح سيناء تحت ثقل شديد باسم الوطن.
تتعاقب عليها الجيوش الغازية عبر التاريخ.
تدنسها، تسوم أهلها خسفا، والقوم صابرون محتسبون.
ولكن عسير أن تكون عينا للوطن ومن ثم تُطعن من الظهر بطعنات قاتلة من مُدي مسمومة بأيدي أبناء جلدتك.
ربما لم يستوعب جمال يوما مفهوم «وطن»إلا أنه يعرف أنْ ما عاد ينتمي لشيء.
لأي شي.
وطنه، سيناء، بل حتى نفسه التي بين جنبيه ما عاد إليها ينتمي.
يشعر بتردي روحه وانكسارها عند هذا البرزخ الوهمي الفاصل بين عالمين، وبين قارتين «حقيقيتين»إلا أنه لم يكتشف بعد أتلانتسه المفقودة.
يجلس جمال ساهما، يتأمل هاتف أخيه الذي استبدل به هاتفه إذ فرغت بطاريته، يتذكر ساخرا كيف أنه نسي استبدال بطاقة الاتصال، ومن ثم يتذكر أن لا فارق كبيرا.
فشبكات الهاتف مقطوعة جل ساعات اليوم، بدعوى إحباط عمل العناصر المشبوهة!
(أي عناصر مشبوهة سيوقفها انقطاع شبكات الهاتف؟)
تراقص رقم غريب على الشاشة المتهالكة لهاتف أخيه العتيق من ماركة نوكيا، اللهجة القاهرية استدعت حضوره.
رحلة طارئة تستدعي أخاه دليلا.
المتحدث يحادثه بوصفه أخاه، ما يؤكد أنه لم يتعامل مع عبد الله قط أو يعرف صوته.

- لا مشكلة.

لم ينس أيام الجنوب وسبله بعد، سيثبت لوالده كيف أن بإمكانه الاعتماد عليه، سيوفر المال اللازم لولادة زوجة أخيه. سيكون الغد رائعا.

بضغطة زر بسيطة أو هكذا تبدو قبل باسم صداقة نهى الإلكترونية.

وبحنكة أنثوية نمقت تعليقا فيسبوكيا أنيقا تشكره فيه على مجهوده المبذول في المحاضرة الأولى، وتشكره على جهده في تجديد معلومات تراكم عليها جهد العمل، مُغفلة عامل الزمن كأنثى صميمة، ثم ضغطت زر الإرسال.

ضغطة ممزوجة بالرجفة والتوجس.

مُغلفة بارتعاشة اليد وتورد الخد.

وما كان لباسم أن يتورع عن محادثتها عبر رسالة رقيقة منمقة.

«لا كدأبه يوم عرفته»

وابتدأ حوار عذب ما كان له أن ينقضي إلا بفجر يوم جديد.

يومها حلقت نهى بين السحاب.

رحلت هناك حيث جرم سماوي قديم قدم الأزل، يحلق في فلكه منذ الانفجار العظيم وقد أغفلته الثقوب السوداء وعوامل الزمن.

فلقد انجلت بتلك المحادثة، رسمية الظاهر الحميمية في باطنها، عوامل صدأ غلف قلبها الرقيق الذي قد نسي كيف يكون رقيقا.

يومها تبدى للكون وجه لم تعهده قبلا.

حتى يوم عرفت باسم في عالمها الأول، فلقد ابتدأ اليوم في عمرها تقويم جديد حقيقي.

تناست نهى عمرها وعمره، حياتها وحياته، أغفلت زوجته التي علمت بوجودها قطعا، وانتشت بالسُكر اللذيذ والغفلة المطلقة لمرتها الأولى.

لقد وجدت لذاتها حياة حقيقية، وانتشاءات عدة لم تتذوقها، وما عاد في العمر متسع لتردد أو تفكير.

أسلمت نهى فؤادها مرة جديدة، عن طيب خاطر وبلا وجل.

الحيرة تطرقه، وبوصلته هائمة بلا قرار.

مرساه بعيد لا يُري، واتزانه مُختل.

يجول باسم الشوارع مشحونا بذكريات انقضت، يطوي أرضا قد طواها قبلا بنفس غير النفس. وروح غير الروح.

لشدما اختلف باسم طالب الصيدلة عنه اليوم!

يجول على غير هدى وإن كانت بوصلته قد عينت هدفا لم تعهده منذ زمن.

يسترجع ذكريات ماض سحيق.

ومن بعيد يراها متوجة على عرشها. في ذلك الركن القريب، في موضع لا يعرف كيف قادته إليه قدماه. ولربما لا يعرف طريق عودة.

انتصبت عربة سندوتشات تقليدية لربما رأى مثلها قبلا عشرات المرات.

سندوتشات الكبدة الشهية التي كان قد امتنع عن تناولها في الشارع منذ زمن طويل.

يتعلل بضرورات الطعام الصحي، القواعد الصارمة التي يلتزمها منذ سنوات، عله يصل لمظهر يليق بمحاضر.

ذهن مشوش بألف تحذير وتحذير طبي حول مخاطر هذا النوع من الطعام.

اتجه صوب هدفه.

سلم مفاتحه لسحر طالما بهره قديما.

تلك التركيبة الكيميائية العجيبة التي تعرف باسم سندوتش الكبدة، ذلك الصانع البارع الذي أثار عاصفة من الرائحة الفاعلة كأفضل فواتح الشهية التي سجلها العلم.

كيميائي بارع يضبط عناصر تفاعله بدقة وحنكة حتى يحصل في الأخير على خير النتائج.

دوما ما رأى باسم في وقت تحضير الطعام عائقا. يقف عاجزا عن استيعاب فكرة استهلاك ساعات لإعداد طعام تستمر متعته لدقائق.

غير أنه الآن ينظر للأمر بشكل مختلف.

التعويذة السحرية التي تحول العناصر متنافرة الشكل واللون والطعم إلى قوام متماسك من الطعام، هي تعويذة جديرة بالاحترام.

على الرغم من أن باسم يعلم الوصايا العشر عن تجنب الأكل المكشوف غير المحتفظ بحد أدنى من الأمان الغذائي، لكنه تناسى.

كان جائعا، والجوع كافر بحق.

في الأغلب سوف تستدعي تلك المغامرة مغصا وغسيلا معويا جزاء وفاقا.

غير أن التجربة تستحق.

كانت التعويذة في مراحلها الأولى، ما مكنه من لمح اللون الأخضر للفلفل الطاغي على المكان.

هذه علامة جيدة، فندرة الكبدة هنا دليل على جودتها! مع هذا السعر البخس فالأمر يستدعي ريبة واجبة.

تتساب الرائحة لتذكي أنفه، وتلهب شهيته، مثلما لم تكن قبلا.

تناول طعامه. نقد البائع أجره وانتشى.

لم يشعر بأنه قد شبع هكذا منذ زمن طويل.

أدرك أن قيودا أرساها لسنوات قد بدأت في التكسر.

حدثتها عن الحب، الوله، الاشتياق.
ألم الهجر والفراق، جراح القلب التي لا تُداوى أبدا.
- ترتكز حياتنا على الحب، سيكذبون، لا أحد يموت من الجوع، إنما نموت لأن أعمارنا انقضت، أو لأننا فقدنا الحب بعد ظفر.
سيخدعونك، سيدعون النضج، والحكمة.
هأنذا، الحب أوجدني وأشقاني الترك.
«تقولها دامعة العين»
- الحب يوجدنا، يُبقينا، يبررنا، يحمينا.
خادعت نفسي ألف مرة، وهربت منها من المرات ألفا، سخطت، وغضبت، وما وجدت قبلتي في غير الحب.
تتذكر كلمات بثتها باسم يوما بغية طمأنته
- حتى لو كنت تاركي، لن أخذلك، ولن أندم يوما على شعور صادق بذلته، يكفيني أنْ صدقت قلبي واتبعته.
غير أنني من خذلت، وتركت!
كانت تغالب دموعا منسابة فلم تستزد ميار.
تحدثها عن رحلة سيناء، فيشرق وجهها، وتلتمع عيناها.
- لمَ لا؟ ما الضير؟
رحلة مرتقبة تجمع حبيبَي الأمس وحبيبَي اليوم، على بعد عشرات الكيلومترات من صخب العاصمة، في قارة أخرى، ولربما كون آخر، وتمنت نهى صادقة لو كانت في زمن آخر. فلربما تكفلت عذوبة الطبيعة في إصلاح ما تلف، أو في إعادة الأمور إلى نصابها، إلى تلك اللحظة السحرية قبيل الترك.

الشتاء هذا العام قارس، غامض، محبب.
تندس ميار في الأغطية الوثيرة، وتراقب غرفتها المغلقة.
تعود لتتأمل الغرفة الدافئة الخالية في ذلك الوقت، ثم تدرك فخورة أنها بخير.
ليست كأولئك البائسين ممن يواجهون الشارع البائس الآن.
في هذا الوقت تحديدا، تشعر بإشفاق تجاههم.
ينساب إلى أذنيها اللحن الهادئ من مشغل الموسيقى دافئا رقيقا.
ينتابها حنين غامض. لمَ لا تحادث نهى وتخبرها عن مشاعرها المتخبطة الوجلة؟
تعود للتدوين في دفتر أنيق تعمد إلى تخبئته بعناية.
هذا الجو الذي يعصف بروحها ووجدانها، ويحرك الحنين بداخلها، هو جو جدير بأن يحيط بعاشقة ولهة.
لمَ لا تعترف لدفترها الذي سيحيط سرها بسور وردي أنيق؟
هائمة هي.
ورقة شجر تتقاذفها الرياح في خريف عاصف.
ورقة شجر راضية، سعيدة.
ابتسامته العذبة تصهر روحها في مزيج مُحبب من الوجد، يطالعها بها فتتشرق بنفسها آلاف الشموس الصغيرة.
نظراته إلى وجهها ينسدل لها جفناها خفرا.
لقد قابلته اليوم، طالعت وجهه الصافي، راقبت ملامحه الرقيقة، كملامح طفل تجود بالبراءة.
بصرت ابتسامته من طرف خفي.
تتأمل حالها، مشاعرها الوليدة، ومن ثم تخط كلماتها.
«إنه الطارق لأجل إثبات الوجود، فلا يحتاج إلى إذن، المتشح برداء زهري يفوح بأريج العطر والرياحين، الترنيمة العذبة التي وحدت القلوب إلى قبلتها، وجمعت الأهواء إلى مستقرها.

الحب.
الأنشودة الخالدة، التي يشدو بها الكون، ويحلو.
وتحفظها الأجنة في بطون أمهاتها.
طارق يطرق بغير أوان.
ويضرب في الأرض بلا عنوان.
فيحل حيث اشتهى المقام، ويرحل حين يشتاق لجديد ترحال.
الحب، أسطورة البشر، ودرة تاجهم، وسر تلاقيهم.
ومحرك حضارتهم، وأصل تراثهم.
العلاقة المتشابكة غاية البساطة.
المترابطة غاية الهشاشة.
المتأصلة غاية الرهافة.
تتجمع فتفترق، توجد فتتشكل، وتتبخر فتنتشر فتضاعف وجودها حين الوجود كحين العدم، سواء بسواء.
تختلف صورها، تتباين، إلا أن في الأخير مردها واحد.
إنه الحب الذي طرق قلبها وأرقه، اقتحمها بلا سابق إذن، تحاول أن تغالب نفسها فتتساءل.
تراها أحبته؟
وسيم هو يحيى بلا جدال، الكل يعلم ذلك.
لم تخادع ميار نفسها يوما بالقول إن الوسامة لا تعنيها.
أو إن محور اهتماماتها دين وخلق مثلما تردد الزميلات.
تهتم بهما نعم.
غير أن وسامة يحيى آسرة، كاسحة.
حضوره طاغٍ، محبب، كلماته الرصينة، وصوته الهادئ ينفذ إلى القلوب بلا استئذان.
ثقافته واسعة، أدركتها منذ الوهلة الأولى.
ربما يظهر بعض الافتعال.
ربما يشتهر بكثرة العلاقات مع الفتيات، والحديث في هذا يطول.

بل ويسع كليته من أقصاها إلى أقصاها.
إلا أنها أدركت أنه لا يعتبرها كالأخريات.
فنظرته لها مدارها التقدير.
هذا ما تلحظه حين يجمعهما عمل مشترك ضمن أنشطة الكلية المتعددة.
كذا تلحظ من عذوبة صوته، رقة كلماته، حال مخاطبتها.
زميلاتها بالمثل لاحظن هذا الاهتمام، بل لقد تحول التلميح إلى تصريح من قبلهن، محفوفا بحسد لا يخفى.
اهتمام يختلف عن كل اهتمام متوقع بأي فتاة في دائرته!
كعنكبوت مُجد ينسج خيوطه منتظرا فريسته القادمة.
خطوط رقيقة كصوته الذي يأسرها، وينتقل بها إلى عوالم الأحلام.
لم تتخيل ميار نفسها في هذا الموضع.
الفتاة المثقفة المعتزة بذكائها وكيانها تسقط في بحر الحب بلا قدرة على السباحة.
تجدف عكس تيار لا تستطيع منه فكاكا.
اليوم عرض عليها رحلة سيناء كختام مختلف لدورة باسم.
خاتمة لا تُنسى. كذا قال.
عرض عليها اصطحاب أي من شاءت من صديقاتها.
يحيى محط أنظار فتيات الكلية يتلعثم؟
شدما أدهشها ذلك وأفرحها.
وإن عملت وسعها على ألا تظهر ذلك على قسمات وجهها، أرادت بتحفظ فسحة وقت لعرض الأمر على نهى.
يا للحياة حين تبتسم!
«الحب يصنع المعجزات»
الحق أنهم صادقون، لا شيء مثل شعور الفتاة بأنها محور اهتمام أحدهم، جنته وناره، قبلته وملاذه، محور كونه.
الشعور بأن هناك من يعنى بها، يهيم بها، يحملها حملا إلى مملكته، يلبسها تاجه، شعور لا يضاهى.

لم تكن غريرة حين وثقت، بل كانت محبة.
أحبت اهتمامه قبل شخصه.
اهتمام متوازن رجولي.
أحبت حبه، كلماته العذبة لها سحرها ووقعها في النفس.
قبلا كم سدت أذنيها.
تمنع كلمات الوجد والهيام من أن تتسلل إليها، اليوم قد اختلف الأمر. أسرها يحيى، انتقل بها إلى جنة أحلام وردية اصطنعتها على عينه.
حلق بها في سماوات زرقاء يسبح فيها ألف كيوبيد وكيوبيد، ليطلقوا سهامهم الذهبية وتعلو ضحكاتهم الطفولية المجنونة.
أولئك الحمقى، هل أدركوا سوأة ما فعلوا؟

بدفترها الأنيق عادت ميار للتدوين:

«جميعنا يمتلك بموضع من ذاته ذلك المراقب الحذر.

يتربص، يراقب، ومن ثم يرسل إشاراته إلى موضع بأنْ تأهب.

احترس يا أحمق.

ستلاقي حتفك.

حياتك تتغير، تتبدل، تختلف قريبا.

غير أن هناك جزءا آخر سيرفضه، فتغلق عينيك وتصر أن تستمر في طريقك بذات الدأب.

تعمل جهدك على أن ترتقي خلال سنيّ العمر إلى إنسان ترضاه، تؤخر، تسوف، وتحكم بأن تبلغه غدا.

غير أن ذلك الغد لا يأتي أبدا.

تدور في دائرة مفرغة بلا انقطاع، تسرع الخطى أو تبطئها.

ومن ثم تكتشف أنك ما برحت مكانك»

عملت ميار الجهد على أن تتقوقع خلف درع ثقيلة تقيها تقلبات الحياة.

غير أنها اليوم أدركت كم كانت رهيفة تلك القوقعة التي احتمت بها.

تغرق في بحر عينيه الساحرتين المتوهجتين ببريق أخاذ، ومن ثم تتساب كلماته ساحرة، تخترق أذنيها، ويجول في جنة مشاعرها، وقد أدرك كعب أخيل الخاص بها واستباح حرمه.

وهكذا، بالإمكان يا شباب أن تصبح صيدلانيا مميزا، يقصدك المريض من أقصى الأرض معتمدا على علمك وخبرتك.

ولكن لنتذكر جميعا إخلاص العمل لله.

أتمنى لكم التوفيق في حياتكم العملية وشكرا لحسن الاستماع.

السلام عليكم.

قالها باسم متسارعا ضاغطا على مخارج الحروف، وقد بدأ قلبه في استعادة نبضاته الطبيعية، كأنما أزاح عن كاهله حملا ثقيلا، بدورة تدريبية جديدة ينهيها بتلك النهاية المقتضبة وابتسامة ملء الفم.

ضبط كاميرا هاتفه من ماركة آي-فون على وضع السيلفي، والتقط صورة تضم الجمع بعد أن تأكد من أن نهى هناك في زاوية الصورة.

صورة ستنهال عليها آلاف الإعجابات وعشرات التعليقات من عينة «يا ليتني كنت معهم!»سواء على صفحات إنستجرام أو فيسبوك.

قبيل أن يعيد ترتيب أوراقه استعاد كلمات يحيى:

- سنصعد الجبل، وهناك عند القمة ستشاهد أروع مشهد تبصره عيناك تزامنا مع شروق الشمس.

يعشق باسم لحظات الفجر، يراها نقطة انطلاق حقيقي.

ذلك الضوء الخافت الذي يتسلل عبر سماوات ضاقت بالليل ذرعا، ذلك النصر المؤزر الذي حققه النور، وعلى أثره انطلق مختالا في جو السماء.

ميلاد صبح جديد يلوح في الأفق.

لم يعتد جمال يوما أن يحادث أباه.

لهذا استقى جل ما يعرفه عنه من أخيه الأكبر عبد الله.

عبد الله الحامل لاسم أبيه رشاد في بطاقته القومية على عكس جمال المسمى بجمال عباد.

برر ذلك الأخ بفترة عصيبة اضطر فيها الأب إلى تغيير اسمه إلى «عباد»لأسباب سياسية.

كذا قال عبد الله، وهذا ما ألفه جمال ولم يهتم بمعرفة التفاصيل!

لربما كان اهتمام الأب بعبد الله «الابن الأكبر»مبررا، نظرا لوفاة أمه في طفولته، إذ عهد الأب إلى أم جمال «زوجته الثانية»بتربيته، فنشأ عبد الله محوطا بحنان زائد، ولقد نشأ سويا قويما، بينما اصطلى جمال بالآم فقد لم يتجرعه أخوه فاقد الأم.

يتحدث عبد الله عن أبيه حديثه عن أسطورة لم تدون بعد في كتب الأساطير.

عملية جراحية أجراها لعنزة صغيرة، هو الذي لم يتم تعليمه!

ولعه بالتجارة والسفر والترحال.

تجارته في ليبيا لسنوات، والأعجب الذي أثار دهشة جمال هو حديثه عن إجادة الأب رشاد للإنجليزية إجادة تامة.

وتحدثه بها إلى أبنائها الإنجليز، فما ينكر عليه أحدهم منها شيئا.

لم يعن الأب رشاد كثيرا بتعليم جمال بعض الكلمات الإنجليزية التي اهتم بتلقينها عبد الله، وأعانته كثيرا في تعامله مع السياح في الجنوب.

لربما لم يجد فيه الروح المثابرة المتعلمة التي وجدت في ابنه «البكري»

حدثه عبد الله كثيرا عن فترة وجود جدهم في القاهرة حيث ولد رشاد.

التحاقه بالتعليم في مرحلة باكرة. اصطحابه الرفاق إلى المدرسة.

عبور «مزلقان»السكة الحديد كل يوم صوب الجهة المقابلة، حيث تقع المدرسة.

حصن شامخ، وقلعة حصينة تضن بالأسرار.

تحوي كهنة ضموا صنوف العلم وقطروه سهلا مذابا سائغ الشراب.

يتحلقون معا، يلهون في الفناء، يرحلون معا في طريق العودة المعاكس لطريق الذهاب.

حدثه عن يوم كئيب كالح تحلقوا فيه كعادتهم، جلهم أطفال في صف التعليم الرابع الابتدائي، بعضهم في الثالث، بينما كان عزت طفلا غضا في صفه الأول.

أسلمته أمه إلى جمع الأطفال راجية أن يعتنوا به.

يومها كان رشاد طالبا في صفه الرابع، تلكأ عزت، تأخر على المزلقان.

تعثر، ثم سقط، ومن بعيد لاح القطار وحشا كاسرا بسرينة عاتية.

غفل العامل عن غلق المزلقان يومها، مثلما غفل عن الطفل الذي تناثرت أجزاؤه على خط السكة الحديد.

وقطعا لم يدرك بطفل آخر مُجد ترك التعليم محملا بثقل ذنب وفاة الملاك الصغير.

انزوى عن التعليم قبيل أن تعود أسرته أدراجها صوب سيناء بعدها بعام.

كان يحيى غائصا في فراشه. بينما يتأمل حازم وجهه ويتابع تطور حالته، قبل أن يسائل الممرضة:

- رحل الضابط؟

-يجيء ويروح، يتابعه بلا كلل، كأنما هو ابنه.

-لن تفهمي هؤلاء العسكريين أبدا! «قالها ساخرا»، ما يعنيه تقريره، رقم وانتهى الأمر وليذهب الفتى ونحن إلى الجحيم.

«يشير إلى الفتى باهتمام»

- هل من جديد؟

-لا جديد، غارق في أحلامه.

-يحلم؟!

-قطعا، وجهه وجه حالم، انظر إلى ارتعاشة جفنيه!

ينظر إلى حماستها بدهشة:

- تابعيه باستمرار، إياك والغفلة، ولا داعي للأحلام.

قطع الطريق إلى غرفته متثقلا، غاص في مقعده ومن ثم بدأ يسحب الدخان من سيجارته الرفيعة، واخترق أذنيه صوت أم كلثوم صادحا.

أغدا القاك؟!

« لا داعي للأحلام!»

كانت يده تخط خطوطا عبثية على ظهر ورقة تذكرة طبية، بالأدق كانت ترسم.

الحلم القديم، يتذكر.

يوم انطلق طفلا مُحملا بإنجاز لوحة جديدة يأمل أن تنال إعجاب أبيه.

حلم بأن ينطلق لسانه محفزا ومشجعا.

يومها كان أبوه محملا بثقل العمل ليوم طويل.

عبء لا ينقضي أبدا، ولقد ترك أثره في شعيرات بيض زحفت على رأسه.

لم يتحمل الأب إلحاح ابنه فانطلق يمزق لوحاته كل ممزق.

بل وتمادى إلى أدوات الرسم ولوحات قديمة أنفق عليها جل مصروفه

ووقته، فأنزل بها النوازل.
يومها ترآى لحازم أبوه شيطانا مريدا قدم من جهنم ليفسد حياته.
ذلك الوجه القديم لأبيه يطالعه حين كل لقاء وإن تناسى مع تتابع الأحداث مبدأه، غير أنه لم ينس قط يوم طفق أبوه يمزق لوحاته.
خلافا لرفاقه لم ينعم حازم بوالده طوال الوقت.
لم يعتد لسانه أن ينطق «بابا»سلسة يسيرة كلما ألجأته الحاجة أو من دون.
كانت عصية على النطق، بعيدة عن الذاكرة.
ولقد كان والده ضيفا يحل على البيت بعد أن يأوي إلى فراشه وتتلقفه أحلام الطفولة، طفولة لم يحيها كما ينبغي.
لقد عرف الكثير من زملائه ممن قضوا شطرا من حياتهم في بلدان أجنبية بحكم عمل آبائهم، غير أن أيهم لم يفتقد ذلك الحنان المنزلي مثلما افتقده.
ربما لتجهم والده الدائم، وإصراره على الحسم فيما يعنيه من أمور.
ربما لإصراره على عمل دؤوب شاق، ساعده على مضاعفة رصيده البنكي مرات ومرات.
كان والده مميزا. جراح فرض اسمه على الأوساط الطبية في كل محفل، صار علامة مسجلة يُستدعى بالاسم لإجراء جراحات خاصة لأسماء رنانة في أوساط السياسة والفن.
ولقد ضاعف جهوده لترسيخ اسم مستشفاه.
أحد أكبر مستشفيات العاصمة وأكثرها خصوصية.
إمبراطورية ضخمة، أرسى قواعدها بجد، ولذا كان لزاما على ولي العهد الوحيد -إثر حادث طريق فقد الأب على أثره قدرته الإنجابية- أن يمسك بزمامها.
ولما كان مجموع حازم في الثانوية ضئيلا، فقد عمل الأب على تسجيله بإحدى الجامعات الخاصة في تلك البقعة البعيدة، بما يناسب مجموعه.
فشل الأب في تحقيق حلمه متمثلا في ابنه، فاشتراه بالمال.
كذا نظر حازم للأمر.
يسحب نفسا جديدا من سيجارته، وينظر بسخط إلى خطوط مرتبكة

ارتسمت على الورقة.

لم يعن قديما بالمال كمعنى مجرد.

فالمال الذي بذله والده لأجله كان كافيا وزيادة.

غير أن السبب الحقيقي كان مرده أن المال في معناه الحقيقي هو ما دُفع له قديما نظير تمزيق لوحاته، كإشارة لحلم قديم دُفن للأبد.

ومع تقدمه في دروب الحياة، ومع إهماله لموهبته القديمة، بل ومع إدراكه لكيف غير المال مجرى حياته، أدرك قيمته الفعلية، لا كما رآها من قبل في بعض ورقات.

مع رؤيته لنظرة الجميع لعربته الفارهة وإنفاقه الباذخ على الرفاق، إنفاقا يحرص على تقاضيه من كرامتهم، حضورهم، وشخصياتهم، أدرك تماما أنه يساوي بالضبط ما يملكه من مال.

أدرك أنه هو ذاته قد تحول إلى رقم مادي، سواء وفق منظوره أو وفق منظور والده تبعا لما ينفقه عليه من مال.

المال، القيمة الفعلية، السلطة المطلقة، الحلم المحطم.

يعني المستقبل المشرق المضمون، شريطة أن تحيا حياة ليست لك، وحلما لم تحلمه.

ربما لهذا لعبت والدته دورا مفصليا في شخصيته وحياته.

فهي تعني فرارا مؤقتا من عالم الأب الجاف المؤطر بعلامات دولار مُذهبة.

ارتبط بها كليا.

حد أن تحلى ببعض الصفات الأنثوية، خاصة حين تدور كلماته مع الرفاق حول إحداهن.

ما فعلت، وما قالت.

كلماته وتعبيراته مصبوغة بصبغة أنثوية ندر أن توجد في الرجال.

حتى غيرته من الرفاق الأكثر حظا في الذكاء والحضور والرجولة، تتسم بطابع أنثوي لا تخطئه العين.

حديثه الدائم عن الفتيات في كل محفل، بنبرة متهتكة مائعة تشي بحرمان

لا يشبع ومعاناة، ويؤكد شعوره بالنقص تجاههن.

معرفته بتفصيلاتهن، حياتهن، بل وعناويين منازلهن اسما اسما.

حديثه مداره عن ارتباط فلان بفلانة، إعجاب هذا بتلك.

ملاحظاته الجديرة بأنثى، والتي يستحيل أن يلاحظها الرجال.

كل ذلك انعكس على شخصه.

كل ذلك يدركه، يتحسسه في كل موقف ويخشاه، ومن ثم يلوذ بالفرار إلى الجانب المظلم من القمر، حيث يرتدي قناعا رجوليا مُفصلا خصيصا لأجله، المعجون بالشرقية الواشي بالتدين الذي يسمح له بالحكم على كل غادية ورائحة.

طرقات متسارعة على الباب، تدلف بعدها الممرضة إلى حجرته.

- الضابط خالد يطلب...

«يسكتها بإشارة سبابته، يشير إلى رأسه وإلى صوت أم كلثوم الذي يعبق به المكان»

- مشغول!

تبتسم بارتباك قبل أن يسأل:

- هل لا يزال يحلم؟

تجيب ما بين ابتسامة ودهشة:

- نعم لا يزال، آمل أن يفيق من الحلم قريبا!

ثبت نظره عليها للحظات، كانت خلالها قد فرت وأغلقت الباب.

- اللعنة، كلمات تلك الفتاة تدق الوجع بدقة. قاموسها اللغوي مؤلم!

استفاق إلى أفكاره.

كانت سمر حلمه الخاص المتفرد.

علاقته بالفتيات محل ارتباك وشد وجذب.

نتاج لطفولة عجيبة، فلقد كان حازم طفلا عاديا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، ليس ذلك المشاغب الذي يتحرش بالرائح والغادي مستعرضا قوته، وليس بذلك المتفوق الذي يلفت الأنظار.

كان عاديا من ذلك النوع الذي لا يحفظ اسمهم أحد، ولا يتذكر أحد شكل وجهه.

ولقد كانت حب طفولته الأول في فصله المجاور، عمد إلى لفت نظرها بطريقة بائسة دفعها إليه خياله.

استأجر زميلا من أولئك الذين يستعرضون عضلاتهم على الجميع.

قام برشوته بمقابل يليق بطفل في المرحلة الابتدائية.

ومن ثم تعرض له في إحدى فترات الفسح على مرأى منها، وانهال عليه ضربا، لم يدرك قبلا أنه قوي لهذا الحد، فلقد ظل زميله يُعالج لفترة!

أم أنه الحب يصنع المعجزات؟!

الطفلة الرقيقة هربت من ذلك الشجار الهمجي كما ينبغي لها!

هربت مثلما هربت سمر!

بجمالها الذي يستثير رغباته الحارقة.

برقتها اللامتناهية التي تتماثل لعينيه الأنوثة مجسدة.

بوضعها الاجتماعي الملائم له تماما.

شكلت تكاملا فريدا، غير أنها رحلت وتركته بعد أن تبدت مرآة لحقيقته.

- لا أدري، أسأتزوجك؟ أم سأتزوج أمك وأباك؟ لا ينقصك غير استئذانهما قبل تناول كوب ماء!

أنت بلا شخصية على الإطلاق!

أريد أن أتزوج رجلا حقيقيا.

كلماتها أرقته، لطمت جبينه وأوجعته، بل إن جملتها الأخيرة أقسى ما واجهه في عمره، نكأت جرحه.

ولقد كان كل ما فعله بعدها لأجل أن يكون رجلا حقيقيا!

- لقد طلبت ندبي إلى سيناء!

-أمجنون انت؟! سيناء؟ والآن تحديدا في هذه الأحداث!

-سأشعر بالراحة هناك، أعلم ذلك.

-والمستشفى هنا؟ والتخصص؟ الوضع قلق هناك، أخبرني اللواء...

-اللعنة على كل العسكريين!
كانت جملته الأخيرة من الجمل الكفيلة بإنهاء أي حوار أو تقارب!
كان عنيفا حاسما مثلما لم يكن قط، ظهره للجدار، ما عاد يملك ما يخسره إذ خسر سمر!
كان شجاعا حقيقيا، كامل الشجاعة، فالشجاع الحقيقي هو من لا يملك ما يُخسر!
وإن أفضل ما في تحقق أسوأ كوابيسك هو أنك لن تعود تخشى أن تتحقق أسوأ كوابيسك!
لم يعد شيء يخيفه أو يقلقه، بل صار شعور الخوف معنى بعيدا لا يطأ أرضه.
حاول استعادتها وفشل.
شدما كانت قاسية، لم تبال بصراخه وبكائه ورجائه.
مثلما لم يبالِ هو ببكاء أمه ودمعة حائرة أبت أن تغادر مقلتي أبيه.
- لقد فعلت كل هذا لأجلك، ولأجلك فقط.
كاذب، الآن فقط يسعى لاستثارة شفقته، كان يسعى لأجل صورته كأب صالح يعمل ويكد لأجل ابنه.
انتقل سيناء على غير إرادة حقيقية، في معركة لا ناقة له فيها ولا جمل!
يعلم تماما أن أباه يراقبه من طرف خفي، التوصيات تنهال عليه من كل صوب، والكل يعمل حسابه، وهو يفيد من كل ما يُفعل لأجله، إفادة مجانية.
علاقات والده متشعبة برجالات الجيش، تمثلهم اليوم في خالد.

كانت الممرضة مندفعة:
- الضابط يصر على مقابلتك!
-اللعنة على كل العسكريين! أدخيله!
قالها وبدأ في تحضير نفسه لجولة استفزاز جديدة.

قلق مثلما لم يكن قط!

- هل أنت واثق في عبد الله هذا؟

-ألم تحادثه؟

-نعم ورتبت معه موعد الرحلة.

-لا تخش شيئا، سيرتب لك رحلة لا تُنسى، اعتمدت عليه في كل رحلات العام الماضي، أنت تعلم أنني أقوم بتنظيم الرحلات منذ زمن، هذا أفضل دليل تعاملت معه، يحفظ الطريق كاسمه، ستكون رحلة ممتعة.

غمز بعينيه متخابثا.

- لا تخف يا دون-جوان، ستسقط الفتاة مغشيا عليها من فرط الرومانسية. أولم تجد طريقة أسهل للاعتراف بالحب إلا الاعتراف به على قمة جبل عند شروق الشمس في قارة أخرى؟!

يقولها ساخرا فيبتسم يحيى، ومن بعيد يتعالى صوت مذياع قريب.

«أغدا ألقاك؟»

للوهلة الأولى لم يرتح أي منهم لجمال، هناك طرز من الناس تنطق ملامحهم بالريبة وتشع بأن: توجس، الطبيعة ذاتها تناديك بأنْ فِر منه فرارك من الموت.

غير أنه -كما الموت أيضا- سيدركك.

لم يكتف جمال بما أثاره من ريبة وقلق فطالب، بلهجته الممطوطة التي تدعي الشبابية وتنطق بالابتذال، زيادة أجره.

تعلل بظروف البلد، ضعف أحوال السياحة، نقص الأدلة، اتجاههم لأعمال أخرى تسد جوع أطفالهم، كانت إشارة شديدة الخبث تحمل إشارة مبطنة بأن لن يجدوا غيره.

باستثناء يحيى لم يعرف أي منهم تفاصيل المبلغ المدفوع، ولقد كان الاتفاق غير المكتوب يقضي بأن هذا كل شيء.

غير أن تغير ملامح يحيى وتململه أكدا أن الزيادة التي يطلبها جمال فادحة.

عندما تنحى بهم موشوما بالخجل ليخبرهم بحاجة طارئة لجمع المال من جديد، ملوحا بأن لا بأس من مساعدة ذلك البدوي الذي ضاقت به الحياة.

حينها ثارت ثائرة باسم:

- المساعدة لا تكون بالاستغلال ولي الذراع، من المفترض أن هناك اتفاقا.

قالها باسم بلهجة ذات معنى.

ارتفعت نبرة صوت يحيى وقد زال الخجل من محياه مظهرا غضبا مكتوما.

- بإمكاننا قضاء الليل كله بحثا عن دليل، وقد يتأجل صعودنا للغد، ما يعني تكاليف إقامة إضافية، هل نتكلف كل هذا لأجل ألا نخضع للاستغلال؟

اندفعت نهى غضبى:

- لكننا دفعنا تكاليف الرحلة بالفعل!

سعت ميار لتلطيف الأجواء بعض الشيء:

- السياحة ليست على ما يرام فعلا، ثم إنه يبدو محتاجا للمساعدة، أعتقد أن

بعض الزيادة لن يضير أحدا.
قاطعهم صوت جمال الممطوط بلهجة ساخرة:
- هل سنمضي الليل كله في هذا الاجتماع؟
أجال نظراته الوقحة فيهم!
تمتم يحيى ببعض العبارات الغضبى على سبيل الرد، في حين قالت نهى باستسلام:
- يتكلم من منطق قوة، لن نمضي ليلتنا هنا طبعا، لقد أجاد استغلال الفرصة!
بعدها بدقائق كانوا قد بدأوا الصعود وسط محاولة جماعية لتناسي الأمر برمته.
حاول يحيى جاهدا أن يخفف مقدار الزيادة، إلا أن جمال كان وغدا حقيقيا!
ومن ثم دفع المال حانقا متمتما باستغلال الظروف وبأننا لن نتغير، وغيرها من العبارات الساخطة.
تقاضي جمال المال راسما على وجهه ابتسامة متوددة وهو يقول بلهجته:
- دعوا عنكم المال!
ولقد لاحظ الكل سخرية مراوغة في كلماته، غير أن باسم كان من انفجر ساخطا:
- لقد تقاضيت أجرك كاملا غير منقوص، ومن ثم زيادة قاتلت لأجلها، أي مال ذلك الذي ندعه عنا؟
بدأ جمال في الحديث المتودد عن الظروف الصعبة، وتكاليف الحياة، في حين كان يتقدمهم عبر طريق جبلي ممهد، بينما تساءل يحيى إن كان الطريق ممهدا بكليته.
أجاب جمال بلهجة خبير:
- طبعا، أغلب الجبال هنا منحدرة، غير أن هذا الجبل تحديدا ممهد منذ زمن، مهده الخديوي إسماعيل.
-لو علمنا ذلك ما احتجنا لمثلك.
قالها يحيى متهكما في محاولة للتغلب على غصة حلق ألمت به من جراء

الموقف بأكمله.
غير أن جمال كان قد أسرّها في نفسه ولم يبدها، وبدأ في إلقاء نظرة على ساعته.
الطبيعة في تلك البقعة ساحرة، رقيقة، لم تفقدها الحياة بعد قدرتها على الدهشة حال تكشف الكون مرتها الأولى.
طبيعة تأخذ بيديك برفق نحو عوالم لم تعهدها، لم تتصورها إذ لم تحلم بها أصلا.
تجول بسحرها، تتوغل في نفسك، حيث تتعرفها مثلما لم تتعرفها من قبل.
يخادعك طول طريق الصحبة بحسن التعرف، قبل أن تكتشف أن هناك مجاهل لم تعرف عن وجودها شيئا، هناك، في موضع من ذاتك قصي.
النقاء يغلف الوجود، يتسلل عبر رئاتهم ليتنفسوه ومن ثم يعبر الشريان والوريد.
يشق طريقه نحو القلب راضيا عن الكون والذات.
صعدوا وسط شعور جمعي بأن رحلة حياتهم، طالت أو قصرت، كمدة صعود جبل كهذا.
إصرار على بلوغ قمة تستبين معالمها لأجل التمتع بشمس ستشرق حتما في الأفق.
رحلة لتبديد حجب الظلام، الخوف، رحلة الإنسان الأبدية نحو الترقي والتمايز.
كان جمال متأهبا قلقا، وإن حاولوا سؤاله عما ينتظرهم هناك في القمة حين شروق الشمس.
تحدث بحذر ومن ثم استرسل، تحدث عن أخيه الذي قتل منذ أيام تاركا زوجه الحامل، تستلزم حالتها عناية خاصة قد لا تتوافر في المستشفى الحكومي القريب، وقد يستلزم الأمر نقلها إلى عيادة الطبيب المجهزة.
تحدث عن كيف سيتطلب الأمر مالا لا يقوى جمال على التكفل به.
حدثه باسم عن الثقة بالله، عن اليسر الذي يلي العسر، وإن فرض حديث جمال حالة من الشعور بالذنب تجاهه، ما استلزم صمتا استمر طويلا إلى أن

فاجأهم جمال مشيرا إلى موضع قريب:
- أعتقد أن المكان مناسب لتناول بعض الطعام وشرب الشاي على الطريقة البدوية، قالها ضاحكا كاشفا عن فخر طفولي بقدرته على التحكم في خطوات تلك المجموعة الصغيرة من أبناء الوادي.
كان جمال ماهرا بحق، فخلال دقائق كان قد رتب كل شيء متحدثا بثقة عن أن الطريق إلى القمة بات مفروشا بالورد، وبأن الصعود ومن ثم العودة لا يحتاجان إلى دليل قدر احتياجهما إلى دفء الصحبة.
تحدث جمال وتحدث بينما كانت خطواته قد بدأت في التراجع.
- ها قد انتهى دوري يا شباب، فلتتناولوا طعامكم ومن ثم لتواصلوا رحلتكم.
أشار إلى الطريق الجبلي، وهو يرسم ابتسامة ماكرة بينما هب باسم فزعا:
- ماذا تعني؟ إلى أين أنت ذاهب؟
-لقد أخبرتكم قبلا. عائلتي بحاجة إليّ في هذا الوقت. ولقد قمت بواجبي خير قيام.
-لن تنزل الجبل من دوننا، الاتفاق كان على أن تصحبنا نحو القمة ومن ثم العودة معنا.
-عائلتي لن تنتظر طويلا، والطبيب كذلك، ولربما رفض استقبال زوجة أخي ما لم يتقاض أجره!
-بإمكانك تسوية الأمر معه حال العودة. بيننا اتفاق.
حاول يحيى أن يوجه باسم إلى محاولة تطويق يائسة، غير أنهما تبادلا نظرات قلقة إثر شعور عام بأن هذا الفتى الذي تشي عيناه بالشر يحمل مدية حادة، إن لم يكن سلاحا ناريا.
شعر جمال بتحركهم فقال بثقة ساخرة:
- كفى أفكارا صبيانية يا شباب. لا تحاولوا أن ترتكبوا خطأ عمركم. أهلكم بانتظاركم في العاصمة!
قالها ساخرا ومن ثم مضى، كلمح البصر، كسراب رأوه لوهلة ثم لم يعد هناك.

ارتسمت نظرة الرعب على الوجوه، ومن ثم بدلوا النظر بين طريقين، طريق سار فيه جمال منذ ثوان هابطا، وطريق نحو القمة يجب عليهم السير فيه غير أنه يتطلب جهدا ومغامرة!

أطل الجبل من عليائه مختالا، ولقد أشار بما لا يحتمل جدلا. قد حان وقت الجد أيها المتحدون الصغار.

لا يشكل هذا الجبل تحديدا تحديا كبيرا.

جبل يسهل ارتقاؤه غالبا.

غير أن غياب الدليل وما أحدثه من لطمة موجعة على جبين كرامة الرجال، فضلا على تسارع الدقائق نحو موعد لقيا شعاع شمس أول هناك عند القمة، كل ذلك عمل على تثبيط العزائم ولم يترك احتمالات قوية للعودة.

ما بقي أقل بكثير مما فات، أضف إلى ذلك جرح الكرامة الملتهب، أدماه بدوي راحل دون أن يتيقنوا من أنه يحمل من السلاح ما يرهب به أولئك الرجال.

تبادلوا نظرة مترددة لا معني لها لثوان.

من العبث القول بأن كل ما أنفقوه من مال، وقلق، وكرامة وخوف سيذهب هدرا في الأخير.

ولم؟ خوفا من قمة جبل قيد الاشراق؟

- سنواصل الرحلة.

نطقها كيانهم الجمعي حاسما، ولقد ولوا وجههم شطر قمة جبل ناعسة تتمطى في ليلة مشوبة ببرد قارس.

قمة تضيق ذرعا بأولئك الحمقى.

تتساءل أي شيطان دعاهم لتحدي الجاذبية والارتقاء؟

الشعور بالفخر اعتراهم!

ها نحن أولاء نصعد بلا دليل.

طريق ممهد يسير، وإن بدا البرد يفرض وجوده.

لم يكونوا ذوي خبرة، لم يجلبوا زيا ثقيلا يقيهم البرد وبأسه.

أم تراه تقصير جديد من دليل غير موثوق في رحلة لم تك قط مأمونة العواقب.

انساقوا لها دون أن يدروا حتى الآن أخوفا أم طمعا؟!

تقدموا في الصعود كتقدم أعمارهم، أعمار تمثلت قطعا من الليل مظلما، ولقد تداعى مخزون الذكريات.

أسكرهم البرد فانطلق اللسان، ربما بغير ما اعتادوا منذ زمن، فما عاد هناك فارق بين حديث نفس وحديث يسمعه الجمع.

السير الطويل، والبرد القارس قد اجتمعا.

وطئا منهم كل موطئ.

ولقد تداعت طبقات المدنية الهشة فتبدى رجل بدائي اختار سبل العمى يوما لئلا يعتريه الجنون.

أن ترى الكون مثلما خلقه الله، هو نعيم الأرض.

غير أن ترى بشريا مثلما تشكلت أعماقه، فهو عين الجحيم.

(بعض العمى جيد)

كذا أدرك رجل الكهف الأول، فطلى فطرته بملاط ثخين من مدنية.

ارتقى سبل الحياة ليفر من ذاته التي بين جنبيه.

لئلا يرى حقيقتها.

ألمها، جراحها المشبعة بالصديد والقيح.

اعتلى الكون، غير أن روحه ظلت هناك عند السفح.

تواصل الانحدار والتردي.

وتحول العمى المُختار إلى انتشاءة وغاية متفردة، سكرة، غير أنه سكر مر قبيح.

للوهلة الأولى لم يدركوا أي كارثة ألمت، تصاعد البرد وتنامى.

كابوس مريع.

يسحق جسدك من تحته فلا ينفك عنه.

يثقلك بحضوره ومن ثم يمد قبضته القاسية إلى فؤادك، فينتزعه انتزاعا بُعيد أن يعتصره بلا رحمة.

الاختناق، تنامي الهواء، بزوغ البصر وزيغه، ومن ثم انكشاف غطائك فهو اليوم حديد.

الظلمة.
الخوف.
الوحدة.
الموت.
الطريق الممتد إلى الأبد.
الخطى البطيئة المثقلة.
الخلاص.. الخلاص..
يسلم خطاه إلى الأمام بلا نهاية.
يجادل الحركة.
يبغي الخلاص.

يحكى عن ثلاثة نفر، كانوا على سفر، أدركهم الليل والعاصفة. فأووا إلى جبل. غار في جبل بالتحديد يبغون الدفء، ويطلبون الأمن.

عمدت العاصفة ليلا إلى صخرة فأغلقت بابهم.

غشيهم الخوف فاجتمعوا. فاقترح أحدهم أن يذكر كل منهم عملا خالصا لله، يتقرب له به، بغية الخلاص.

تسارع الخطى.
حين تنغلق على روحك، تتبدى نفسك.
أنت لست قديسا، فقط لم تُختبر.
لم تغشك التجربة.
تتحرر من ثقلك، تساقط على جانبي الطريق معالم قداستك.
صوت باسم يحكي، ينطلق من بعيد، يخرق حجب الظلمة.
البرد يجمد أطراف يحيى.
يحاول فتح عينيه.
يُثقله ما رأى.

وإن مرت بك الأحداث فإن أول مرة تظل ذات وقع فريد.

بداية الأشياء، حيث مبتدأ التذوق، ولذة الاكتشاف الأثيرة. تحمل متعة وبهجة محببة.

ولقد تداعى اليوم حاجز منيع أضفاه عقله فيما سبق على ما انقضى من أعوام.

تظل الذكرى قابعة هناك في عقلك أبدا، تستدعي ذاتها حين يطيب لها المقام.

يتذكر الآن يوما مضى كأنما يراه واقعا.

يتذكر كيف قضى سنته الجامعية الأولى، ومن ثم استمر في العاصمة ليعمل في إحدى الصيدليات.

يومها تملك باسم أول مال يتحصل عليه بجهد يمينه.

كان له لذته وبريقه، يتذكر.

كان حديث عهد بالثانوية، قرويا بائسا أضفت عليه المدينة رونقها فتنازعته المدنية والقروية.

إحدى قريبات أمه ممن استقررن في العاصمة منذ زمن هاتفته يومها.

دعته إلى زيارتها حيث تقيم في حي راقٍ.

هاله المكان وأغراه.

صعد إلى الطابق الثالث حيث الشقة التي بهرته.

يومها كان بادي الالتزام.

استقبلته سيدة في منتصف الأربعينات تقريبا.

بها بقايا من جمال أتت عليه السنون والأعوام.

رداء محتشم سابغ.

حضورها طاغٍ كأم.

أم مثلما تصفَ الكتب الأمهات، سألته كثيرا عن نفسه. إقامته في العاصمة. ومن ثم تطرقت إلى كيف قضت سنين طوالا مع زوجها في رغد من العيش. كان تاجرا ولقد عمل بدأب لسنين حتى يكون ثروة تؤهلهم للسكن في هذا

المنزل الراقي.
تأمل ذوق الشقة الرفيع، الذي لم يشاهده قبلا حتى على شاشات التلفاز.
حدثته عن ابنة أتت في أواخر العمر.
عن فرحة أبيها وسعادتها بها، ريحانة حياتها، كذا قال وأسمتها حسناء.
تساءل إن كان يوافق اسمها وصفها، ولم يك يعرف ما تدخره له الأيام.
كان زوجها وحيدا في الحياة، لا عائلة ولا ظهير.
زوجته وابنته هما كل ما تحويه حياته، ولقد قضى نحبه في حادث طريق منذ عامين.
تجاوزت الحادثة سريعا، ولقد قاومت دمعة حارقة ألمت على أثر الذكرى.
حدثته واسترسلت ومن ثم دعته إلى الغداء.
تمنع أدبا رغم أن قد تاقت نفسه لطعام منزلي، فالعمل يستلزم وجود دائم في العاصمة، عكس أيام الدراسة.
أصرت فاستجاب على استحياء.
يتذكر تلك الأيام الفائتة.
يوم كان حياؤه بكرا لم تمسسه بعد الحياة أو تصهره في لجتها.
يتذكرها كماضٍ سحيق بعيد.
اليوم ترك جلهَ، انتقل إلى طاولة مرصوصة بألوان شتى.
وإن تعجب من اهتمامها غير أنه رشفه حد المنتهى والتذ به.
حدثته عن أن الفتاة تخطو نحو الثانوية هذا العام، وذكرى ثانويته قريبة.
وكيف أنها تضعف عن متابعة دراسة ابنتها.
كانت الفتاة تنتقل تباعا بين دروس خاصة في كل مواد سنتها تقريبا.
- أريد منك ولو ساعتين أسبوعيا، تتابع فيها دروسها وتحصيلها، لك ما تريد فيكفي قدر أمك عندي.
لم يكن يعرف أي رابطة تربطها بأمه، فالقرابة أبعد من نبرة حديثها الودود.
لم يكن قد ارتدى قناع المجاملة بعد ولا ألفه.
اليوم تراه تهتك من وفرة الاستعمال.

كان طفلا بعد. ينطلق الكلم إلى أذنيه ومن ثم عقله فيصدقه بلا تمحيص.
- ما رأيك يا دكتور؟
كان حديث عهد بالكلية، تحمل له اللفظة أحلاما براقة واعدة.
ومن ثم وافق بلا جدال مع ملاحظة عابرة حول أخبار أمه. ساعتان أو ثلاث أسبوعيًا لا ضرر منها.
فما سيلقاه في هذا البيت من رعاية حال مقدمه يستحق.
ولقد كان، ولا يزال فذا، نابها.
ستتحصل الفتاة على درجات مرتفعة وستكون هديته قيمة بلا شك.
فضلا عما سيتحصل عليه من الأم قطعا على شكل هدايا لعدم إحراجه، كم تبدو لطيفة راقية!
انتقل إلى بيتهم مرته الثانية متأنقا مختالا.
استقبلته الأم كخير ما يكون الاستقبال.
يومها جلس مع الفتاة وتأملها مرته الأولى.
حسناء حقا كانت، لم يكن خبيرا بالنساء يومها غير أنه قد أدرك حسنها.
حدثها عن الثانوية وحدثته، عن موادها، طموحها، أعجب بحماستها.
لم يكن يدرك حينها أن الحياة لا بد أن تبدأ بتلك الفورة الأولى، قبل أن تفتر.
هناك من يعمل على تأجيجها وإذكائها، غير أن الكل حتما يبدأ بتلك الفورة الأولى.
مرته التالية أدرك فورة أخرى، جسدها الواشي بالأنوثة.
المزدان بانسدال الشعر الحريري الذي يتوج رأسها.
ضبط نفسه يتساءل عن ديانتها في سره!
قبل أن يذكر نفسه بأنه في القاهرة لا قريته البعيدة، حيث غطاء الرأس هو التمييز الظاهري بين المسلمات وغيرهن.
انتظم في الحضور.
وانتظم في تناول طعام تلك الأم الطيبة الشهي.
كانت مهمته سهلة، فقط المتابعة.

متابعة تقدمها الدراسي، ومتابعة نمو جسدها الشهي بدوره.
متابعة نظرات عينيها الحالمتين.
هل تراه سيتهاوى إلى حبها؟ تساءل بقلق.
فهو يؤمن بأن الحب مرحلة متقدمة لم تأت بعد، لن يطرق منزل إحداهن خاطبا قبل أن يمتلك مكانته التي يبغي.
لكن الفتاة حلوة. تراها أحلام المراهقة القريبة من تعبث به وتصور له خلاف الواقع؟
ضبط نفسه متلبسا بأفكار مجنونة حول زواجه بحسناء وما يترتب عليه!
ستنتقل له بالتبعية الفتاة وما تملك.
غير أن ضميره حينها كان في أوج سلطته.
أنبه، لامه، أرقه.
مع الوقت صار وجوده معتادا روتينيا، والاعتياد يقتل الحياة، ولربما قتل الحياء أيضًا.
تحررت الأم من حشمتها بعض الشيء في وجوده.
الفتاة تبعتها.
وإن كان يلتقي الأم لدقائق حال استقباله وحال وداعه، ولربما تخللتهما مرة إضافية حال تقديم الطعام إن لم تقم بذلك الفتاة.
فإن تلك الحسناء المتفلتة تتراءى أمام ناظريه لأكثر من ساعتين، إذ تراكمت الدروس وتكاثرت الالتزامات ما استدعى متابعة أكثر.
أحلام يقظة عدة واشتهاءات طرقت عقله.
أوضاع ماجنة كثيرة تخيل نفسه فيها يلهو بهذا الجسد الفائر اللذيذ.
بل لقد حلم بها حلما جنسيا ملونا ثلاثي الأبعاد مجسم الصوت، استيقظ منه إلى الحمام، غير أن الماء الذي أغرق جسده لم يخفف عنه شيئا.

حينما استقبلته الفتاة بفستانها القصير الذي بالكاد غطى ركبتها، وحينما تأودت أمامه متمايلة بمؤخرة بدأت تكتشف الكون للتو.

وحين لمح انضمام نهديها المتشكلين حديثا عبر فرجة صغيرة في الفستان المثير، أدرك باسم أن اليوم مختلف تماما عما سبقه من أيام.

تخلله عطرها النافذ، رائحة جسدها النظيف، ومالت عليه لتقول بدلال إن أمها ليست في المنزل.

ومن ثم ناولته هاتفها النقال الذي ظهرت عليه إشارة بدء المكالمة مع من سُجلت باسم «مامي»، تبادل بذهن مشوش كلمات مقتضبة مع السيدة التي ألقته إلى الهلكة وفرت.

أخبرته أنها في الطريق إليهم وتعتذر عن عدم استقباله.

أدرك من زي حسناء أن الأم كاذبة وعلى الأرجح لن تصل قبل انصرافه!

وأخبرته بما سوى ذلك لئلا تلعب برأسه الأفكار.

مغفلة أن جسد ابنتها يقوم بدوره خير قيام في زلزلة أركان الفتى، أو بأن فخذيها اللتين انكشفتا حين جلست قربه تدكان حصن سلامه النفسي باللهب، وبأن تفاصيل السوار الذهبي الذي يغلف يدها الرقيقة يلهمه بتفاصيل صاخبة.

بل إن السلسلة المحظوظة التي تجري على رقبتها، قبل أن تصب في نهر الحياة، تفعل به الأفاعيل.

ارتبك.

وقد أدرك أن وجهه ممتقع بحمرة الشهوة وجسده يغلي بنارها، ولقد لمست الفتاة ارتباكه فاقتربت حتى تسللت رائحتها الأنثوية المُفعمة بالخيالات إلى أنفه.

قبيل أن تميل على شفتيه بوجهها، حيث التقم شفتيها عفوا وتبادلا قبلة كيفما اتفق.

ربما كانت قبلة طفولية حالمة، إلا أنها ظلت أبدا قبلته الأولى التي ظل مذاقها في فمه، ولم تغن عنها قبلات حفصة الملتهبة المدربة.

أدارت الفتاة دفة المعركة الدائرة وقالت بتهتك واضح إثر مرأى فريستها قد انهارت:

- سأحضر كوبا مثلجا من عصير الليمون.

ثم أردفت بنبرة غنوج:

- لتهدئة أعصابك المرهقة.

قالتها ثم تركته متأودة فخورا، وقد حانت منها التفاتة بنظرة شبقة لم تحركه مثلها قط، رغم تعاقب الأعوام.

كأصابع المكرونة المسلوقة كانت قدماه حين حاول أن يقف، فلقد كانت نظرات عينيها دعوة صريحة لاقتحام الخدر ولا جدال.

في فيلم «Forrest Gump» يستجيب الطفل فورست لنصيحة حبيبته الدائمة (النصيحة لا الحبيبة) بأن «لا تكن شجاعا، اهرب يا فورست».

ومن ثم يطلق ساقيه العليلتين للريح ويركض، وعلى أثره يركض بعض الصبية ممن يتحرشون به.

يركض بعد أن يردد:

- قالت أمي دائما إن المعجزات تحدث كل يوم، البعض لا يعتقدون ذلك، لكنها تحدث.

يستسلم فورست لفعل الركض دون إعمال كثير فكر فيمن يطاردونه، أو دوافعهم، ودون أن يفكر حتى في جدوى الركض.

يظل يركض طوال الفيلم تقريبا. ويظل فعل الركض هاجسه الأول.

فعل الركض بأقصى سرعة، لمن اختبره، واحد من أكثر الأفعال تجسيدا للحرية، أنت تسلم جسدك للريح وتلقي الكون كليا خلف ظهرك، تستسلم لما يلوح في الأفق من مجهول. وتنأى تماما عن النظر خلفك. تتناسى خوفك للحظات وتُفعّل الاستسلام.

ولتصل لتلك المرحلة من الاستسلام لا بد من إغفال العقل للحظات، تفعل مثل الطفل فورست وتعطل تلك الأفكار المجنونة التي يضج بها عقلك.

حينها فلربما تحدث المعجزات، ولربما تنفك قيود قدميك مثلما حدث مع فورست جامب، ربما، غير أن الأكيد أنْ سيلوح الكون أمام ناظريك مثلما لم يكن قط. ستطلق الخطى بلا تعثر. بلا انتظار. بلا قلق.

أو مثلما يقول جامب: قالت أمي دوما، لا بد أن تضع الماضي خلف ظهرك، قبل أن تتحرك للأمام.

فلتضع الماضي خلف ظهرك. الماضي برمته. ولتُفعّل فعل الركض من الآن. الركض من كل ما يؤذيك. أو يكدر صفو حياتك. أو ينتهك إنسانيتك. فالحياة أقصر من أن نضيعها في التفكير ولو لثوان قبيل الركض. أو قبيل الهرب. ما لم يكن منه بُد.

تتأمل ملامحه الحلوة، تود لو فتح عينيه، فقط لو فتح عينيه لتبصرهما، لو تحرك، لو نجا!

تضن به على الموت في تلك البقعة البعيدة عن بيته، وأهله، وحبيبته ربما. تفكر.

فقط لو ترى عينيه وترتوي.

يبدو كملاك يغط في نومه، توقن بنجاته.

في حين كان عقله ينقله إلى عالم بعيد.

يتذكر. قاتله التعب يومها حتى قتله، أرداه صريعا إثر ضربات موجعة في يوم كئيب عاصف، أرهقه تتابع الامتحانات الخانقة.

تجثم على روحه، تكبل حياته وكيانه.

تضلل نفسه في غابات قاحلة بادية الوحشة.

كان يحيى خارجا من أحد الامتحانات للتو. عطش في يوم قائظ.

إلى أن رآها من بعيد، فتبدت له كزجاجة مثلجة تزدان بقطرات ماء ندية مغرية.

تمايل جسدها اللدن أمام مرآه متناسقا رهيفا.

ضاقت على خصرها العباءة بما رحبت.

فتمايزت مؤخرة تُصلي القلوب بنيران متأججة شبقة.

كمنوم مغناطيسي تتابعت خطواته معها، يتلمس أرضا وطئتها قدماها بحذاء محظوظ عالي الكعب، عمل وسعه على شد أوتارها وإبراز مؤخرتها اللعوب، وقد استوت على ساقين خططتهما العباءة بخطوط سود.

يتمايل الجسد من جديد فيتمايل القلب. والقلب يهوي ويحب.

أبصرته حتما، فالأنثى تبصر من غير نظر.

حينها كان غضا لم يلج بعد عوالم الأنثى المتوهجة البراقة.

عالم باهر متباين الأغوار متمايز الأشكال.

يموج بالصخب.

يهدر كبحر هائج لا يقر له قرار.

أو يثور كبركان، يقذف بالحمم ثم يهدأ أحيانا إثر نسمة محببة ويد حانية تهدهد الحائر، فيخر في المحراب طفلا.

عالم يحسبه الظمآن شيئا فإذا هو أشياء.

منحها نظرة حيرى فبادلته نظرة تشي بالخفر.

وإن اختزلت عبرها قسمات وجهه الوسيم ووعته.

وجه علاه الإرهاق فزاده رجولة وبأسا.

لاحت على ثغرها المحلى بالحمرة ابتسامة ثانية غنوج، تدعوه صراحة لاقتحام الخدر وولوج المحل.

أمرته عيناها المكتحلتان، وناداه وجهها الغارق في الأصباغ.

انفلت لجامه فأطلق غزله خافتا غير مسموع، إلا أنه وصل لأذنيها المرهفتين المختبئتين خلف غطاء رأس تبدت من تحته إحدى خصلاتها فابتسمت من جديد.

تكلما بلا كلام.

حتى الآن لم يعرف بم تكلمت.

لم يتذكر كيف افتتح حديثه الأول.

غير أنها كانت مرحبة مضيافة.

خافضة الرأس ما لم يلتفت، فإن التفت عنها اكتنفته بنظرة ملمة بكل تفاصيل وجهه الوسيم.

أدرك للوهلة الأولى أنها لا تدانيه عقلا أو ثقافة، غير أن جسدها المدله تكفل باعتدال الكفة وتوازن الميزان.

لم يكن ليعنيه عقلها في كثير، فلقد اختزل الموقف في غاية واحدة منذ زمن.

شفتان مسحوبتان وإن كانتا صالحتين للالتهام، فإن أبتا فهو على التهامهما لقدير.

لقد آن له أن يكسر حدة صومه الطويل.

أخفت الأصباغ تفاصيل وجهها، ولقد تماهت ملامحها تحت وطأة تبرجها البادي للعيان.

تأمل وجهها بشبق، ولقد منى نفسه بافتراسها خالصة له في غفلة من الزمن.
استفاق من أحلامه المعربدة على تساؤل أطلقته وإن لم يتذكر موضوعه.
كل تساؤلاتها لا تعنيه في كثير أو قليل.
ها هو أخيرا صوب بوابة تلوح في الأفق، محكمة الإغلاق مجنزرة بأقفال ثقال.
ملكة متوجة اسمها الأنثى توشك أن تنزل عن عرشها، وتلتقط يديه لتبثه اليوم من شفتيها سرا، أو سحرا.

الغواية حلوة، لذيذة.
لطعمها اللاذع على اللسان مذاق محبب.
لا يدري باسم أكان له أن يشعر بالفخر أم بالندم من جراء ما فعل.
تأرجح الشعور كان لأنه طوال الوقت لم يعرف لم فعل ما فعل من الأساس.
لم أسلم قدميه للريح تاركا الفتاة وحيدة في الشقة، ومن ثم نزل الدرج مهملا المصعد كأنه لم يكن.
لم ظل هائما في الطريق، حد أن لم يعرف قط إن كان قد اقتطع المسافة سيرا على الأقدام، أم اعتمادا على أن عقله قد احتفظ بالطريق والمواصلات، وكررها بلا تفكير كحمار جر صبور.
يتساءل عن كيف صبر على تلك الدعوة الصريحة وكيف فر؟
تراه إن قضى وطره أكان ظفر بالفتاة ومال الفتاة؟
أم كان ليكلل بالعار ما بقي!
يومها اتجه رأسا صوب الحمام، حيث أفرغ سائل شهوته دفقا. متخيلا جسد حسناء البض.
بكى وندم إذ كان عاهد نفسه ألف مرة على أن يكف عن استحضار نشوته.
وها هو اليوم يسقط إلى ما نجح في الصمود أمامه طويلا.
بل كاد يسقط في براثن إثم أكبر إثر إغواءات طفلة لم تتجاوز مرحلتها الثانوية بعد! طفلة؟!
يومها أعاد ترتيب أولويات حياته مقدما الزواج.
بل إن باسم المسالم الذي لا يتعرض لما يثير غضب السلطات، قد أطلق لحيته وتقرب من بعض الشباب الملتزم في كليته.
أولئك الشباب كانوا قليلي الأسئلة. لم يعنهم في كثير سوى أن مهتديا جديدا قد انضم لركب الهداية.
ولم يفهم قط التضييق الأمني الذي لاحقهم وقتها، رغم عدم اقتراب أنشطتهم من السياسة من قريب أو بعيد.

وإن فسره وفق عقلية أمنية تخلط إطلاق اللحى بأحد التنظيمات اليمينية الفاعلة سياسيا.

يتذكر بخجل كيف خضع للتضيق، ومن ثم حلق لحيته كاملة وعاد إلى طبيعته القلقة، قبل أن تشرق شمس حياته بنهى.

كيف نفذت إلى قلبه؟

لم يكن له الخطوة الأولى قط.

بل فوجئ بها ذات صباح جميل تطلب كشكول محاضراته لتعويض نقص ما فاتها.

كانت بلسما تعد بدواء ناجع لجروح روحه، وإن لم يدرك وقتها أن ستكون جرحه الأبدي العصي على الالتئام.

لا يذكر كيف تعددت مرات اللقاء.

كيف خرج عن تردده الخجول للمرة الأولى، إذ شوهد مصطحبا إياها ويسيران جنبا إلى جنب.

انبهر أول ما انبهر بشخصيتها الكاسحة التي لا يثنيها شيء.

عدم تأثرها بآراء من حولها.

عكسه تماما –حينها- إذ تهبط به ملاحظة عابرة من عليائه وترفعه أخرى ليحلق بين السحاب.

عجبه الأكبر عن لم مالت إليه.

كان يرى في نفسه ألا يستحق الحب.

يحمل ازدراء لشخصه إلى أن أشرقت على روحه شمس نهى الشتوية الدافئة.

أشرقت في روحه شعورا بالفرح.

بحب الكون، وحب ذاته.

أمطرت على قلبه قطرات رائقات من حبها.

نهى ترياق ساحر وحب أثير.

يتذكر كيف أمدته من ثقتها، دعمته من وجودها فانطلق خلقا آخر جديدا.

وجهها المستدير المشرق.

عيناها السوداوان اللامعتان اللتان طالما اشتهى أن يبصر فيهما نفسه.
وجنتاها المتفجرتان بالدماء اللتان طالما هفا إلى تقبيلهما.
قدها الرشيق، جسدها المتناسق الرهيف.
روحها التي تشع حياة وتشرق أملا وبهجة.
امتدت حواراتهما لساعات طوال بلا كلل.
تأمله في بحر عينيها وإبحاره فيهما بلا قارب ولا شراع.
لقد خففت عذوبة نهى من كدر حياته، بل ذابت كحبيبات سكر في أوردته وكيانه.
غير أن سرعان ما انفكت عنه تبغي فرارا.

الأبيض يظلل عالمه أبدا.

من بعيد طيف باسم، يداه تنسلان من يد نهى ويجري هربا.

يختلف شعور باسم القديم عن علاقة الحب «الجاهز»الذي ركبه في علاقته بحفصة إثر الاحتياج.

هائجا مستثارا يستقبل نظراتها الشبقة التي فاجأته منها بعد أن ألفها وألفته.

ينصهران معا في نوبة حب مجنون تذكيها بنارها ورجزها تحته.

غير أن سرعان ما يصل إلى ذروته، ولربما لمح في عينيها الواشيتين بالشهوة رجاء مكتوما أن يمنحها المزيد.

لم يتصور قط قبل زواجه أن تكون تلك الملتزمة بادية الالتزام ممتلكة لشبق كهذا الذي يتخفى تحت طبقات جلدها الرقيقة.

أحبها؟ كاذب إن ادعى.

أحب طاعتها، ووجهها، وذروة شهوة لم يفلح يوما في استجلابها وإن سعى.

اليوم.

مع تداعي روحه، لا يجد في تلك التي إلى جواره نهى التي تركته.

حيال الترك نستحيل آخرين، لم يعودوا ينتمون إلينا.

كان قد أدرك، وعرف، ومن عرف ما جهل بعدها.
الحب يأتينا مرة، ويتركنا مرة. فإن ترك استحال إلى اعتياد لا حب.
الحب أن آمنك أبدا، وما عاد يأمنها.
لقد كُسر حاجز أمنه للأبد إذ رحلت مختارة إلى أحد طارقي بابها إثر ضغوط والدها.
ذبحته يومها بسكين صدئة، والذبح مرة. وما بعده محض تكرار.
تركته موصوما أبدا ببقايا دم متخثر في عنقه إثر الذبح.
وما يصح بعد الذبح رتق.
اليوم ولدى عودتها أثبتت تداعي عالمه القائم فحسب.
أما عالمه القديم فما عاد يملكه.
يتساءل، لم لا يكون بإمكاننا العودة منذ البدء؟
بالعودة عند البدء مزية أخرى غير إدراك ما فُقد. ما تُرك.
للعودة للبدء ارتداد محبب.
عودة لأطوار الطفولة.
أزمنة براءتنا الأولى.
ابتسامتنا البكر ودهشتنا الحلوة.
حيث هناك فقط لا احتمالات ترك، أو ذبح.
تهاوى عالمه. انسلت أصابعه من أصابع نهى للأبد.
وولى وجهه للهرب.
يبغي فرارا صوب لائح في الأفق.
بلا حفصة، بلا نهى، بلا ثقل.
أسلم قدميه وركض أبدا، وكان العالم كله يتبعه.

قوي يحيى، أو هكذا حسب نفسه.
إلا أنها لا تتوانى عن التمثل أمامه كحورية لعوب.
يتراقص جسدها اللدن أمام ناظريه.
يسيل لعابه بنهم، جسدها المتوهج بالشهوة الواشي بالشباب.
متوجة على عرشها تختال، يزينها التاج أو تزينه.
يرتسم حاجباها ليظللا على عيني مها.
وتنطلق حليها ثعبانا يسري بين سر الحياة. وسر الحياة تفاحتان ناضجتان تختالان.
ينتشي قرطها فرحا بما نال.
شفتان مغرورقتان بالحمرة شهيتان، تغريان بالالتهام.
وأنف رفيع يشي بالرقة تستنشقه الحياة.
شقراء غانية، أم سمراء فاتنة، يُولع بالتفاصيل الصغيرة.
تعده بساعات (أم تراها دقائق؟) من المتعة والانتشاء.
حتام يطول الفراق؟
أما من سبيل للخلاص؟
تتربص به في دنيا الأحلام، تخطو فوق أرض مخملية ناعمة.
تشب على أصابع قدمين نظيفتين، كفراشة مزدهرة.
تلوح بألف لون ولون.
تراوده.
يبتسم بود، وتلوح على ناظريها نظرة ناعسة غنوج، يلتمع جسدها من جديد.
أما من سبيل للخلاص؟
تناديه بصوت رقيق تتخلله بحة متوارية في غياهب النسيان، أواه من النسيان.
ليته ينسى تمايلاتها وتمايلات قلبه.
ليت ذاك الوهج الذي بثته إلى جسده يخبو أو ينام.

ليت ذهنه المشوش يصحو فيدارك حقيقة الأمر وجلاءه.
تراها حورية ساحرة؟ فتنة تؤرق نومه؟ أم امرأة عادية تبدت له فتنة حين أراد.
قوي هو غير أن براثنها تخلب الألباب.
ولقد تبدى له لوهلة كم هو رائع التردي والسقوط.
واستيقظ ولقد دنسته الأحلام.

للمرة العاشرة تناهى إلى أصوات الجميع الصوت الصارخ بفرحة:
- لقد فتح عينيه، لقد نجا أخيرا!

بعد أشهر:

حين عبر يحيى الطريق المزدحم، كان عقله منفصلا بالكلية، متخما بالتفاصيل الدقيقة التي تتشكل بدأب، تتشكل بنيانا يثقل روحه، المستقبل كذا يلوح، الأمل يحدوه بينما يسعى هو بإصرار، الإصرار قاتل أحيانا.

هو خير من يعلم ذلك، إصرار على تنظيم الرحلة واصطحاب حبيبته، وهو الذي لم يدرك شيئا عن تنظيم الرحلات من قبل، إصراره على التوصل لدليل دفعه إليه القدر بمحض الصدفة والخطأ، طالعته ابتسامة السيدة الأنيقة العجلى، اخترقه عطرها وشذاها، لاحت منها التفاتة تطفر بالأمل ولم يعقب، اتجه رأسا صوب الهدف، اللافتة الشامخة التي تلوح من بعيد، تعبق بالتفاصيل الدقيقة وتبشر بالحلم، تحمل اسم شركة الدواء متعددة الجنسيات الشهيرة، سويسرية المنشأ، يجتاز البوابة الحديد ومن ثم يدلف إلى غرفة الأمن، يتذكر تفاصيل سيناء البعيدة، تفاصيل دقيقة تشكلت قبلا لترسم حياته وتنتزع زهرته!

لقد عمل البدو لإنقاذهم، تمطت الأم البيروقراطية العجوز وتجشأت، هبت لنصرتهم إثر الضغوط، زاد عدد أبنائها كثيرا ولا ضرر من فقد البعض!

الطائرة تحلق لمرات فوق المنطقة الموبوءة بفقدهم، حددت موضعهم غير أن حجمها يعيق هبوطها في تلك البقعة الوعرة، والتجهيزات لا تفي، حسنا، لا بد من انتظار ما يفعله البدو من استنطاق أرضهم، بعض التنسيق لن يضر أحدا.

يتذكر يحيى ذلك اليوم جيدا، خطواتهم الهلعة حين اشتداد العاصفة على غير هدى، أدركهم التعب فتوقفوا، العاصفة أشد من أن تُحتمل، الصقيع يعصف به، يخدر أطرافه عرضة للتساقط، فيما بعد أدرك أن من التجهيزات ما كان يلزمهم (خدعهم الدليل؟)، لم يدر هذا بخلده وقتها، ما أدركه أنه نادى ميار فلم تجبه.

ميار!

من عزفت على روحه موسيقى كلاسيكية خالدة، من فاحت كعطر باريسي

خلاب، وذابت في أوردته كشيكولا سويسرية ملهمة.
رحلت!
صرخ بها صرخة هادرة ارتج لها الجبل!
لقد أجهز الموت الأسود بمنجله الغادر على حبه، تلك الأجساد النابضة بالحياة الراجفة بالبرد ستؤول إلى الموت هذا المساء!
عدة جثث وبضعة أرقام، البعض يتغنى باسمها حينا ولربما شمت آخرون.
لكنه لن يسمح بأن يؤول ذكره إلى هذا المنتهى.
انتصب واقفا.
لن نظل ها هنا أبدا بانتظار داعي الموت، لن أستسلم للموت! قالها ثم مضى.
- اسم حضرتك؟ اسم المقصود بالزيارة والغرض من فضلك.
انتزعه صوت رجل الأمن، يدون المعلومات بسرعة ومن ثم يطلب بطاقته الشخصية ويمنحه بطاقة مرور حفر عليها شعار الشركة واسمها.
- ستسمح لك البطاقة بالمرور عبر البوابة، حضورك يشرفنا.
«ارتسمت على وجهه ابتسامة مرحبة ومن ثم أشار له بالخروج»
بخطوات واثقة كأنما فعلها يحيى مرات، مرر البطاقة عبر البوابة الإلكترونية التي انفتحت مصدرة تكة معدنية، دلف إلى عمق المبنى مبهورا بحجمه، حينما قال له المتصل بأن المقابلة ستجرى في المبنى الحادي عشر، تخيل أن الشركة تقع في ذلك المبنى من شارع ما، لم يتوقع قط أن يكون العكس وأن المبنى هو الواقع في إطار الشركة!
مقر الشركة ضخم كحلمه.
اتجه رأسا إلى المبنى المقصود، موظف الاستقبال يرسم ابتسامة مرحبة ويجري اتصالا روتينيا ومن ثم يشير إلى المصعد.
كان وحيدا وانغلق باب المصعد من خلفه، تأمل وجهه الحليق تماما في المرآة ودهمته الذكرى.
الهواء مشبع ببرودة مميتة، تلسع ندف الثلج جسده بلا توقف حد الخدر، ويغوص في نخاعه، يطرق العظام، ويشقق الشفاه حتى يختفي منها أثر

الحياة، شفاهه التي تصارع السكرة تنطق بالكلمات، تنساب من فمه بغية التحرر، وكأنما يخفف عن ظهره ثقل خطيئتة الأبدية التي يدفع ثمنها أنى ارتحل، بلا حول ترفع رأسه يد حانية، الحساء الدافئ ينساب إلى أوردته بلا وسيط، وتواصل كلماته التحرر، تتوق روحه للخلاص، الأقمشة البيضاء المحايدة تظلل المكان، تنبئ بماهيته، الممرضة الحسناء تبتسم، والطبيب يقيس النبض بحياد:

- لكن حديثك غير منطقي يا بني!

يستعيد صدمته من جديد.

- عندما وجدوك كنت على مسافة بعيدة عنهم جدا، كنت كمن رأى الموت فولى وجهه هربا، لقد نجوت بأعجوبة من موت محقق، باسم أيضا فعل، كلاكما وجد على مسافة بعيدة وإن تباينت اتجاهاتكما، العاصفة كانت أقسى من أن يدور حوار كهذا، يبدو أن قلة الأكسجين الواصل إلى مخك قد صورت لك هذا كله.

يتأمله بحياد، هل هو وهم ما عاشه حقا؟ فما الحقيقة إذن؟ كيف يتبينها من تلك العتمة القاسية؟ كيف يحررها من لجة الوهم ويراها خالصة؟ وإن كان ما سمعه وهما فماذا عما قاله؟ هل تخيله أيضًا؟ لربما استيقظ يوما ليجد أن حياته كلها كانت وهما!

قطع مرأى الفاتنة عند باب المصعد خيط أفكاره، بزيها الرسمي بالغ الأناقة والفتنة، لقد رأى منذ دلف تلك الشركة في جملة المقابلات السابقة أكبر عدد من الجميلات رآه بحياته، لكنه لا يزال متحفظا يخشى الزلق، فخطأ واحد قد يكلفه فرصة حياته في الالتحاق بتلك الشركة، ابتسم ابتسامة مجاملة ومن ثم تنحى عنها، لم تعد تغريه المظاهر البراقة، أم تراه انتشى بالحب؟

يدلف إلى قاعة الانتظار مثقلا ببذلتة الرسمية التي تبديه أنيقا وتخفي ما اعتمل في ذاته من جروح، يبتسم ابتسامة محايدة لا تنبع من أعماقه، يخوض لجة الحياة متمسكا بدبلوماسيته القديمة.

تتبدى الحياة كشطرنج تماهت رقعته وتداخل أبيضه وأسوده في تركيزات

عدة، ينسجمان ويتشكلان من جديد، درجات الرمادي هي اللاعب الرئيس، القيم الخلقية التي أرادتها الراحلة تنهرس في ترس الواقع وزخم العجلة ولجة الحياة العملية وقسوتها، ينصبها اليوم قديسة حقيقية إذ زال منه حظ النفس في التغلب عليها، ككل الموتى فقدت مزية المنافسة، واكتسب هو أفضلية أنه هنا، حي، يقول ويقرر، وأن يشعر بأن روحه التي تحررت آنفا تعود للاستسلام لقيد جديد.

سيجتاز تلك المقابلة الأخيرة حتما، هذا ما أمل.

(كنت وغدا يا جمال!) يخاطب نفسه ويتذكر!

حين تسارعت خطواته هابطا الجبل، في انتقاله إلى بلدته، اكتظ جيبه بالمال، والمال يفعل الكثير.

يومها كان مثقلا بالوهم، سيسدد تكاليف ولادة زوجة أخيه، سيثبت للأب أنه محل ثقة.

كذا منى نفسه، طرق البلدة ودروبها، شوارعها المتسعة غير الممهدة التي عهدها ومن ثم دلف إلى منزله الخاوي على عروشه، غياب مريع في رجال القرية مثلما ظهر، أخبروه عن زوجة أخيه التي جاءها المخاض فكان لزاما أن تنتقل إلى عيادة الطبيب في المدينة، رجال البلدة الذين انطلقوا جميعا دعما للأب رشاد.

العم كمال نفسه بجلبابه البدوي القصير ومعطفه الثقيل الذي اشتراه منذ سنوات طوال من بورسعيد ولربما لم يخلعه من يومها، العم كمال قد قبل بأن يحرك سيارته العتيقة في ذلك الوقت المتأخر والطقس السيئ، صدم جمال بمرأى الرجال هناك ملتفين حول أبيه، محتلين مكانه الذي احتله عبد الله قبلا، حساب الطبيب قد دُفع بأكمله، لوازم الوضع ومتطلبات زوجة الأخ قد تكفل بها رجال البلدة الذين لم يشغل جمال نفسه لوهلة بتفقد وجوههم قبلا، يجلس في غرفته منزويا، متأملا أموال أبناء العاصمة التي تناثرت أمامه، أبناء العاصمة الذين قد ضربت عاصفة ثلجية جبلهم ليلة صعودهم، لم يعتد السماع عن عاصفة من قبل، ولم يسمع عن تحذيرات الأدلة من الطقس السيئ في الليالي ماضية، يتابع تحركات أبيه الدؤوب، سعى للاتصال بأحد رجال القبائل في الجنوب، غير أن الاتصال مقطوع كالعادة، فأرسل من ائتمنه على رسالته إلى رجال الجنوب.

لم لم يرسله أبوه؟ اكتفى بنظرة لائمة فاحصة! تراه اكتشف دوره في القصة؟ لم يلم جمال بتفاصيل الأمر، مواقع التواصل تجري على قدم وساق، استغاثات لطائرات الجيش بالتحرك، العاصفة شديدة وصعوبة تحديد

موضعهم لن تسمح بإنقاذ سريع، كانت الأفكار تصهره في لجتها، أما اليوم فيسحقه زحام العاصمة، الأجساد المعروقة، يسرع الخطى فلا يكاد يبين.
يسابق الزمن فلا يدركه، الأصوات الصاخبة تخترق أذنيه غير أنها تتوقف كما ينبغي لها عند صخرته الناتئة. تتكسر.
وينساب إلى كيانه صوت الأب.
وجهه المتغضن الأبيض المشرب بالحمرة، لفحته الشمس بقيظها، وأنضجته الحياة بقسوتها، وجوده الذي صار جزءا من المكان وصوته القادم من أزمنة سحيقة، موجة عاتية، تتشكل من قطيرات حانية، غير أنها تتجمع وتتخلق وجودا وكيانا عاصفا.
لقد انساب نهر الحكي أخيرا حتى المنتهى.
البئر السحيقة قررت أن قد حان الوقت لتنزح عنها بعض الماء.
كانت الحرب على أشدها، وابنة العم محجوزة لي سلفا مثلما يقضي العرف.
كانت فاطمة لحنا صافيا، نيلا بعيدا سائغا شرابه يبشر بوعد الجنة في حياة أبدية، ترنيمة مقدسة آمنت بها وهمت بها حبا، والأجمل أن قد كانت مقدرة لي سلفا، وعدا آمنت به كما آمن أولئك الأبالسة في الشرق بأرضهم المقدسة.
لقد أحببتها يا بني والحب قيد، قيد لذيذ يدفعك إلى التمسك به.
كانت النكسة قاصمة، استقبل عمي جندي الجيش المدحور بثقلها أياما ثم هربه، كانت فاطمة تطببه، وكنت أغار.
نطقها بألم.
كانت فاطمة منيعة، سدا صامتا، عيونها الحلوة تأبى إتمام الزيجة، وترنو نحو الغرب!
عمه يستقبل ابن الوادي المدحور بالحرب وابنته تطببه.
انتصرنا بعدها بسنوات، ولقد تقصيت فعلمت بأن ذات الجندي قد قتل في المعركة!
ربما قتله خرق القيادة المنتشية بالنصر حد فك سلساله واستحالته كابوسا جرينا لإنهائه في ساحات التفاوض.

كنا نقاتل العالم يا ولدي ولكن منذ متى كان قتال العالم صعبا؟

الأرض شرف يا بني، من باعها باع شرفه، ومن باع شرفه لا يعذره شيء.

لم يكن من السهل أن أعرف بمقتله، كلفني ذلك جهدا ومالا غير أن المرء لا ينسى غريمه.

وأويت إلى بيتي حيث معركتي المعلقة، زوجتي المنيعة التي تأبى أن تلين.

ظلت متباعدة عصية، تلمح الحب في عيني فتأبى، تقبل وجودي غير أنها تبادله رفضا، والعاشق صابر رغم أنفه.

ولد أخوك بعد أشهر ولقد عددته امتدادا للمعركة، ألهمت حبه.

تراودني الأحلام بأن تلين.

عندما حاول الصهاينة استمالتنا لم يدركوا بأن قلوبنا تهفو إلى واد من جنة.

ارتبك جمال، فالرجل يتنقل بين موضوعاته كشيخ أثقله النسيان، غير أن ذاكرته متينة، مدار الأمر واحد غير أن جمال لا يفهم.

بعد سنوات النكسة وقبل سنوات تيهنا الأربعين، عرض علينا شيطانهم «موشي ديان»التدويل، سيناء حرة يحكمها أهلها شريطة أن تستقل عن مصر.

أولئك الأبالسة يعرفون الأصول!

توجهوا رأسا إلى رووس القبائل وفاوضوا لأجل عرضهم المشؤوم، كان عبد الناصر يعد العدة في العاصمة، سيعيد ترتيب البيت ليحيل أيامهم سوادا.

(عبد الناصر ضيعها يا أبت، ود جمال لو قال)

أدركوا ذلك ورغبوا في أن يتركوا له كرة لهب لا تهدأ بداخل الدار، مسمار جحا!

تفاوضوا وسعوا وأغراهم «سالم الهرش»، شيخ القبائل، بقبول التفاوض وبأن يعلن ذلك على الملأ في مؤتمر دولي.

إذا ما قالها «الهرش» فكلمته سيف على الرووس، لا يجرؤ سيناوي على المخالفة، والعالم يشهد ومندوبو الأمم المتحدة حضور.

ولكن «الهرش»مثلنا، قلبه مغمور بحبها وإن قست، لم يفهم أولئك

الصهاينة ذلك، ولن يفهمه أبالسة اليوم أبدا، قلوبنا تهفو إلى الغرب يا بني، قلوبنا مغمورة بحب والحب لا يستحيل كرها!

قال لهم بأن سيناء تابعة لمصر أبدا، ومن أراد أن يتحدث بشأنها فليتجه صوب الغرب، إلى الحكومة القابعة في العاصمة!

يومها ردد رؤوس القبائل أن «الله أكبر»، تختلف عن تلك التي يرددها ملاعين اليوم...

«قتل الجيش ابنك وحاول الملاعين ترضيتك لتشتمهم». أراد جمال أن ينطق.

أهل الوادي لا يعرفوننا يا بني، لا يعرفون عنا سوى الصحراء وسكناها، لا يعبؤون بنا، ومن جهل معذور بجهله، ومن عرف أحب أو كره.

لم تعرف فاطمة مقدار حبي، أو لربما لم تتصوره، لو اطلعت على قلبي لعرفت، ولو عرفت لأحبت، لا يستبدل بالحب إلا حب أقوى منه يدفعه.

لا يعرفوننا يا بني، يترنمون بحب سيناء مرة في كل عام وقد جهلوها، كأنما يسقطون بدعواهم عبء ضميرهم المثقل.

يتذكر جمال أيام الثورة، لم يحب أبوه «مبارك» قط، كان سبه فرضا عيانا كل حين، كان يرقب عينيه المتقلبتين عبر الشاشة ترقب تتابع الأحداث وعبد الله معه، يتذكر جمال يوم جاء عبد الله فرحا:

- الطفل لم يجتز الحادية عشرة، ويقذف قسم الشرطة بالحجارة، يسألونه: لم؟ فيقول: ضربني الأمين ابن الكلب كفا! (كم ضرب أهلنا بالكفوف على أقفيتهم!)

مع بدايات أيام الثورة بدأ الكفاح المسلح في مدن سيناء، ضاق الناس ذرعا بتشديد الخناق، ولمحوا زوال الطاغية آن، لكن الأب يردد:

- ربنا يستر.

لم يهتم جمال بالأمر، فرح عند سماع خطاب التنحي، غير أنه لمح زيغا في وجه أبيه

- ربنا يستر.

كذا قال، فهب عبد الله فرحا:

- رحل الطاغية يا أبت.
- ربنا يستر يا ولدي.
- حتام الخنوع؟ البلد صار لنا!
- ليس لنا غير الجيش يا بني، مردنا له. يقولها ويزيغ بصره.

لم يفهم عبد الله يومها، ولم يعتن جمال بالفهم، الجيش معنى بعيد، لم يطأ أرضهم منذ أمد، منذ سنين الحرب تقريبا، والشرطة تعمل فيهم المظالم بلا رادع أو رقيب.

الجيش لا يفهم غير الضبط والربط، وهم قوم مقامهم السماء وديدنهم أن لا قيد.

لم يصدق جمال حتى هذه اللحظة بعض ملامح الفرحة الخفية التي رآها في عيون أهالي بلدته ليلة مقتل عبد الله، فإن يقتل أحد الأهالي على يد الجيش -ولو خطأ- سينفي عنهم تهمة التآمر ضد الإرهابيين مستقبلا وإلا ساموهم خسفا.

أولئك قوم لا فهم لهم، يحاربون جيش بلدهم من أجل وهم، كذا يردد الأب، حاولوا أن يسترضوا الأب بالمال بعد قتل الجيش لعبد الله، ليصدروا أنفسهم بدلا للحكومة، أو عوضا عمن أراد الجيش قتله منهم في واقع الأمر، مال يدفعونه لأسر من مات.

يردون أن يستميلونا يا بني مثلما فعل الصهاينة بالأمس، ألم أقل لك أن لا فهم لهم؟ لا يفهمون أن لنا قلوبا تهفو إلى الغرب!

اعتذر أبوه بالكفاف وبأن المال ربما ذهب لمن هم أولى من الأسر الفقيرة، ليس من مصلحته أن يناصبهم العداء علنا.

ليس لنا غير الجيش يا ولدي، يقولها ويزيغ بصره.

أحببت فاطمة يا بني، ابتسامتها متباعدة، روحها عصية، أحببتها، غير أنها أحبت غيري.

غاصت كلمات أبيه في روحه، روح كرمال صحراء امتدت على امتداد الطريق، على جانبي العربة المتهالكة التي أقلته، حيث أخذته سنة من النوم.

كم حمل ذلك الشيخ من حمل ثقيل؟ ألم يأن لحمل جمال أن يسقط من تبة

الإهمال؟ أن يدرك طريقه المتماهي مع تلك الظلمة؟
غير أنه كما اعتاد، يتوه في النسيان.

خاتمة

في لحظة ما سوف تتوقف عن الركض، تطل على شاطئ انطلاقتك البعيد، وتتيقن أنْ أزف الوصول، لا تستطيع تعيين موعده غير أنه آت لا محالة في أمد قريب، وإن طال الوقت فحتما سيمضي كما مضى وقتك منذ الانطلاق، هل كنت لتتخيل أنك استنزفت كل تلك الدقائق لولا نظرة عجلى إلى الوراء؟ ينساب العمر من بين أصابعك الزلقة، يتسلل برفق وإن شددت العزم، ينبئك بأن قد أزف الوصول، تطالع آراء أولئك الحمقى في الخلف، غير أنك تتجاهل أنهم لم يمتلكوا زاوية رؤيتك بعد!

افرد أشرعتك وواجه عاصفتك كالرجال، أطلق جناحي آمالك ولا تتدثر في ركن السفينة، فلا مكان لجبان ها هنا، قاتل لأجل الوصول منتصرا، كي تستقبلك مدينتك فاتحا في موكب المجد، كي تحليك بتاج الفخار، وكيلا تطفر الحلم دمعا.

تمت

في كيان للنشر والتوزيع، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب تراسلنا، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
أو زور موقعنا:
www.kayanpublishing.com
وللاتصال الهاتفي:
هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**
هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:




kayanpublishing
kayanpublishing
kayanpublishing
kayanpublishing+